الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات — قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

علاقة السياق الكلامي بالتقعيد النحوي
دراسة مقارنة بين سيبويه والمناهج اللغوية الغربية الحديثة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالبة:
**** فريدة لمودع .***

إشراف الأستاذ:
**** د. سليمان مودع.***

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع لأهلي وعلى رأسهم والدّي الحبيبين "عمر" و"خديجة" الذين كانا ولا يزالان سندي في أموري كلها.

وعمتي "مسعودة" المغفور لها بإذن الله التي ما برحت تمدني بعطفها وتأييدها حتى غابت عنّا ورحلت إلى الدار الآخرة.

وإخوتي وأخواتي الذين حملوا عنّي ما كنت أحسبني أقوى على حمله وشجعوني على المضي قدما كلما وهن العزم مني ودعتني نفسي إلى التخاذل.

ولكل من أعان على إتمام صفحات هذه الرسالة.

شكر وتقدير

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي أمدّني بعونه لإنجاز هذا البحث ومنّ عليَّ بتوفيقه لإتمام صفحاته، فالحمد لله حمدا يليق به سبحانه على ما أعان ووفق، وفتح وسدد.

أصدق مشاعر الامتنان والشكر أزجيها لأفراد عائلتي على ما لقيته منهم من مودة وما حملوا عني من أعباء.

ثم أوفر الشكر وأجزله للأستاذ المشرف الدكتور "سليمان مودع" على ما أسداه من نصائح وتصويبات فوفقه الله ورعاه.

والشكر موصول إلى كل من مدّ لي يد العون لإنجاز هذا البحث وأخص بالذكر صديقتي "جهيدة سعودي" على ما أهدته من مساندة علمية.

فكل أولئك لهم مني الشكر والعرفان بالذكر، والدعاء لهم بالمثوبة والأجر.

Pixiz

مقدمة

شغلت دراسة السياق مجالا واسعا في الدرس اللغوي الحديث والمعاصر، وارتبط السياق بجهود الكثير من علماء اللغة قديما وحديثا حتى صارت نظرية متكاملة، وبذلك أصبحت هذه الأخيرة منهجا من أهم المناهج في دراسة المعنى في اللغة، فالدلالة الصحيحة للمعنى هي التي تُكتسب من السياق، فالسياق يجمع المعاني المراد فهمها، ويوصلها إلى ذهن القارئ، وفق قرائن لفظية ومعنوية تسير بالمعنى نحو الغاية المقصودة.

وقد اهتم علماء اللغة قديما بالسياق ومدى تأثيره على المعنى، دون إهمال للظروف المحيطة بالحدث الكلامي، فكان تناول نظرية السياق باعثا للكشف عن مقولات لعلمائنا العرب تهتم بالجانب الاجتماعي للغة اهتماما يساوي –إن لم يزد في بعض الأحيان– ما كشفت عنه الدراسات اللغوية الحديثة في الغرب، ولأنه من غير الإمكان الإحاطة بذلك الكم الضخم من التراث اللغوي، اقتصرنا على سيبويه سعيا منا إلى إبراز الجهد الذي بذله في دراسة السياق والوقوف على مقدرته ووعيه بذلك.

ومن أجل تحقيق ذلك، حاولت الإجابة من خلال الموضوع على التساؤلات الآتية:

– ما هو السياق؟ وما هي أنواعه؟

– إلى أي مدى اعتمد سيبويه المنهج الاجتماعي في تقعيده النحوي؟

– ما أوجه الشبه بين أطروحات الدرس اللغوي الغربي الحديث ومنجزات سيبويه؟

ومن الأسباب التي دعتنا إلى اختيار هذا الموضوع هو شغفنا بسيبويه ورغبتنا في إبراز دوره في وضع اللبنات الأولى لنظرية السياق، فكان الهدف الأول من هذه الدراسة تسليط الضوء على الجهود العظيمة التي قدمها لنظرية السياق، واعتماده عليه في توجيهاته الإعرابية، مع إبراز مواطن الالتقاء بينه وبين الدرس اللغوي الغربي الحديث.

ولأن منهجا بعينه لا يصلح لمعالجة هذا الموضوع ارتأينا أن نزاوج بين المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن؛ لأن غرض البحث هو تبيان اعتماد سيبويه السياق في تقعيده النحوي مع إبراز التشابه بينه وبين طروحات المحدثين الغرب.

ولم نكن السباقين لدراسة السياق إذ سبقت العديد من الدراسات نذكر منها:

"السياق وأثره في الدرس اللغة؛ دراسة في ضوء علم اللغة الحديث" وهي أطروحة دكتوراه مقدمة لكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، أعدها إبراهيم محمود خليل، تطرق فيها إلى تطور الدرس اللغوي، مشيرا إلى عدد من المدارس اللغوية الحديثة، ثم تناول بالتفصيل أثر السياق في كل من البحث الصوتي، الدلالي والنحوي عند الغرب والعرب. "دلالة السياق" لردة الله بن ردة الطلحي وهي أطروحة دكتوراه من جامعة أم القرى، تناول فيها مفهوم الدلالة والسياق في التراث وعلم اللغة الحديث ، كما تطرق إلى السياق بشقيه اللغوي والسياق الاجتماعي في الدرسين العربي والغربي مع تحليل لأهم عناصر سياق الموقف، وكذا "ملامح النظرية السياقية عند اللغويين العرب؛ دراسة من منظور لساني" لنعيمة بن ترابو وهي رسالة ماجستير من جامعة بسكرة تطرقت فيها إلى تجليات نظرية السياق في التراث العربي وأهم أطروحات النظرية السياقية في الفكر الغربي لتنتهي إلى تحديد معالم الالتقاء بين الفكرين، وهناك دراسات أخرى غير التي ذكرت وهي في معظمها تناولت تجليات السياق في التراث العربي والفكر الغربي، فيما اقتصرنا في دراستنا على أثر السياق غير اللغوي في العلاقات النحوية لدى سيبويه.

وللظفر بمفاتيح الإجابة عن التساؤلات السابقة عقدت فصول هذه الدراسة حسب الخطة الآتية: مقدمة وفصلين.

الفصل الأول جاء موسوما بـ: "أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية"، ضم ثلاثة مباحث فالمبحث الأول كان الحديث فيه عن سيبويه وكتابه، والمبحث الثاني تناول تعريف

السياق اللغوي والتعريف الاصطلاحي قسم إلى شقين الشق الأول تناول السياق في التراث العربي والشق الثاني تناوله عند المحدثين، بالإضافة إلى أقسامه وكذا المنهج الاجتماعي في دراسة سيبويه للغة، وخصص المبحث الثالث لعناصر سياق الحال عند سيبويه وعلاقتها بتوجيهاته الإعرابية.

أما الفصل الثاني التطبيقي الموسوم بـ: "السياق بين سيبويه وبعض المناهج اللغوية الغربية" فقد عقدت فيه مقارنة لاستجلاء أوجه الشبه بين ما قدّمه سيبويه وما طرحه أصحاب المناهج اللغوية الغربية المختلفة فيما يتعلق بالاهتمام باللغة الفطرية الطبيعية التي يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية، وذيل البحث بخاتمة تحمل مجموعة النتائج المتوصل إليها.

وتأتي هذه الدراسة مستندة على مجموعة من المصادر نذكر منها: "الكتاب" لسيبويه، "طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي، بالإضافة إلى عدد من المراجع العربية والأجنبية المترجمة منها: "اللغة العربية معناها ومبناها" لتمام حسان، "سياق الحال في كتاب سيبويه" لأسعد خلف العوادي، "دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث" لعبد الفتاح البركاوي، "علم الدلالة" لبالمر.

ويبقى عدم توفر بعض الكتب التي تناولت بالتفصيل مكامن التوارد بين سيبويه والمناهج اللغوية الغربية الحديثة ككتاب "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث" لنهاد الموسى والتي لا غنى للبحث عنها يشكل عائقا أمام البحث، إلى جانب ذلك أن المتوفر منها كتب أجنبية غير مترجمة.

وفي الختام نحمد الله الذي منحنا الإرادة والعون لإتمام هذا البحث، كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل "د. سليمان مودع" الذي دعم مسيرة هذا البحث بالتوجيهات السديدة والأفكار الصائبة، كما نتوجه بالشكر الجزيل للجنة المناقشة التي ستتكبد عناء

تمحيص وتصويب الهفوات في البحث، والشكر موصول لكل ما ساعد في إتمام هذا البحث من أساتذة وزملاء.

الفصل الأوّل

(أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية)

أولا: ترجمة سيبويه.

ثانيا: تعريف السياق.

ثالثا: أنواع السياق.

رابعا: سيبويه والوجهة الاجتماعية في دراسة اللغة.

خامسا: عناصر السياق عند سيبويه.

I. ترجمة سيبويه:

1) اسمه ونشأته ووفاته:

هو عمر بن عثمان بن قَنْبَر، وبعضهم يختزل نسبه فيقول: عمرو بن قنبر، وهو فارسي الأصل، وينتمي بالولاء إلى الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَّة بن جَلَدَ بن مالك بن أدد[1].

أما كنيته فاختلف فيها، قيل: أبو بشر، وقيل: أبو الحسن، وقيل: أبو عثمان، وأثبت هذه الكنى جميعا هي أبو بشر[2]. ولقبه هو "سيبويه".

ولم تحدد كتب التراجم عام مولده، وتذكر أنه ولد في قرية يقال لها "البيضاء من قرى شيراز من عمل فارس"[3]، ويقال إن مولده كان بالأهواز. ثم هاجر أهله إلى البصرة فنشأ بها وقضى بها جل عمره، بل إن القفطي نقل عن أحد العلماء قوله إنه "من أهل البصرة"[4] وهذا يعني أن تكوينه العلمي اختمر واكتمل في البصرة.

واضطربت المصادر في تحديد وقت وفاة سيبويه، وفي المكان الذي توفي فيه، وفي عمره وقت الوفاة:

- ففي العام الذي توفي فيه قيل إنه توفي في "177هـ"[5]، وقيل "180هـ"[6]، وقيل "160هـ، وقيل 188هـ، وقيل 194هـ"[7].

---

[1]– أبو بشر بن عمرو عثمان سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص3.

[2]– عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، د.ت، ص65.

[3]– مرتضى الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، ص66.

[4]– جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ط1 1986، ج2، ص354.

[5]– المصدر نفسه، ص348.

[6]– أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1987م، ج3، ص464.

[7]– جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة ط2، 1979م، ج2، ص230.

- والأصوب أن تاريخ الوفاة هو 180هـ لأن«سيبويه مات قبل يونس، ويونس مات سنة 183هـ»[1].
- وفي مكان وفاته، قيل: توفي في « البيضاء، وقيل بالبصرة، وقيل بساوة»[2].
- وأما عن عمره وقت وفاته فقيل: « توفي عن 32 عاما، وقيل توفي وله نيف وأربعون»[3].

2)شيوخه:

لا تضم قائمة شيوخ سيبويه الكثير من الأسماء، وتحدثنا كتب التراجم أن أبرزهم حماد بن سلمة، الأخفش الأكبر، يعقوب بن إسحاق الحضرمي، عيسى بن عمر الثقفي يونس بن حبيب الضبي، الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو أعظم شيوخه قاطبة.

ويمكن أن نفسر اقتصار كتب التراجم على ذكر هؤلاء العلماء كشيوخ لسيبويه لسببين:

- إما لقلة أسفار سيبويه العلمية، ومحدودية تنقلاته.
- وإما أن هؤلاء العلماء هم أكثر من لازمهم سيبويه، وجلس إليهم، وهذا هو الراجح.

غير أن المادة العلمية التي يضمها الكتاب مادة ضخمة ناضجة تحتاج إلى جهد عدد كبير من العلماء ولابد من أنه قد جالس غير هؤلاء العلماء الذين ذكرتهم الكتب.

3)منزلته العلمية:

كان سيبويه منقطع النظير، لا تفتح العين على مثله، من أعلم الناس باللغة، قال الزجاج: «إذا تأملت الأمثلة في كتاب سيبويه تبيّنت أنه أعلم الناس باللغة»[4]. وقد قال فيه

---

[1]– جمال الدين القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص353، ويونس هو: يونس بن حبيب الضبي الولاء البصري، قال السيرافي: بارع في النحو، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، وهو من شيوخ سيبويه، وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها، سمع منه الكسائي والفراء، وكانت له حلقة بالبصرة.

[2]– السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، ص230.

[3]– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص464، وبغية الوعاة، ج2، ص230.

[4]– الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص72، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص398.

ابن خلكان: «كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه. وذكره الجاحظ يوما فقال: لم يكتب الناس في النحو مثله، وجميع كتب الناس عليه عيال»[1].

وأصبح اسمه بمرور العصور"صفة غير محضة" – إن جاز التعبير– على من برع في النحو، فيقال عنه "سيبويه عصره"[2].

وكان ثقة صدوقا يتثبت من أحكامه قبل أن يلقيها، ويتحرى الدقة في العرض، ويعنى بتمييز الصريح عن المشوب، والتنبيه على ما يصادف من المنحول، وقد سئل الأخفش سعيد بن مسعدة عن الثقة المأمون المقدم من أصحاب الخليل الذي يوثق بعلمه ذكر سيبويه[3].

4)لمحة عن كتاب سيبويه:

لا يجوز أن يكون هناك حديث عن سيبويه ولا يتصور أن يكون هناك حديث يصاحب ذلك عن مُؤَلَّفِه "الكتاب"، خاصة وأن عليه المعتمد في دراستنا هذه، هذا المُؤَلَّف الذي استوعب أصول النحو، وأحاط بفروعه، فلم يصنف في بابه أجمع منه، ولا أرصف تعبيرا، ولا أمتن سردا.

وقد عُرف كتاب سيبويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم "الكتاب"، إذ لم يسمه صاحبه باسم معين لأنه توفي وهو شاب فلم يتمكن من معاودة النظر فيه واستتمامه، فليست للكتاب مقدمة ولا خاتمة مع جلالة قدره وإحكام بنائه[4]. قال السيرافي: «فكان كتاب سيبويه لشهرته وفضله علما عند النحويين، فكان يقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب فيعلم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ولا يشك أنه كتاب سيبويه »[5].

وقد ألف سيبويه كتابه بعد موت الخليل (160هـ)، والدليل على ذلك نجد في مخطوطات الكتاب كثرة تعقيبه على أقوال الخليل بعبارة "رحمه الله"، كما روي عنه أنه حين

---

[1]– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص463.

[2]– ينظر: ترجمة ابن الدهان في وفيات الأعيان، ج2، ص382.

[3]– القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص352.

[4]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ص24.

[5]– أبو سعيد الحسن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، ط1، 1985م، ص50.

أراد وضع الكتاب قال لعلي بن نصر بن علي الجهضمي وهو زميله ورفيقه في التلمذة عند الخليل: « تعال نتعاون على إحياء علم الخليل»[1].

وهذا يعني أن الكتاب ألفه صاحبه وهو في قمة نضجه العلمي والفكري، وضمنه لما وقف عليه من شتيت الفوائد، ومنثور المسائل، وما بدا له من أصول وفروع، وتمحيص الحقائق، واستبطان الدخائل، فأتى الكتاب محكم السبك مستوٍ على سوقه يعجب من يقرؤه.

كما نال "الكتاب" من مدائح العلماء وثنائهم القدماء والمحدثين على حد سواء، فقد أفرغه صاحبه في قالب الكمال، وأصبحت كلمة "الكتاب" – كما قال الزمخشري – إذا أفردت بالحديث علما على كتاب سيبويه[2]، ونذكر بعض أقوال العلماء فيه على سبيل المثال لا الحصر:

- قال السيرافي: "عمل سيبويه كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد»[3].
- وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه: « أركبت البحر؟»[4] تعظيما واستصعابا له.
- قال كارل بروكلمان: "كتاب سيبويه أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربي كافة وقد زاد المتأخرون كثيرا من تحديد مقاصد النحو، وتبيين حدوده، ولكنهم لم يكادوا يضيفون شيئا ذا بال من الملاحظات الهامة والأنظار الجديدة»[5]
- ويقول علي النجدي ناصف: "وأحسب أن لو وزن الكتاب بكتب النحو كافة لرجحها وزنا، وأربى عليها قيمة، لا من الناحية التاريخية وحدها، ولكن من الناحية العلمية قبلها، ففيه كل ما فيها وزيادة، من النفائس المصونة والكنوز المذخورة»[6].

فهذا غيض من فيض براعة سيبويه وعبقريته الفذة في العربية، ونفاذه إلى أسرارها من خلال سِفره العظيم، الذي ادّخره للعربية كنزا وأرسله مع الأيام ذكرا.

---

[1]– الزبيدي، طبقات النحويين، ص77–78.

[2]– أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري، الكشاف، تح: يوسف حمادي، مكتبة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ج2، ص13–14.

[3]– السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص64.

[4]– القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص248.

[5]– كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت، ص191.

[6]– علي النجدي، سيبويه إمام النحاة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1979م، ص191–192.

II.تعريف السياق:

* تمهيد:

مصطلح السياق أهم مصطلح في بحثنا هذا، إذ يعد مدخل الدراسة والزاوية التي سندرس من خلالها تناول سيبويه للسياق في كتابه، ولذا وجب أن نبين هذا المصطلح والمراد منه حتى يستقيم توجه البحث.

1)لغة:

ذهب ابن فارس إلى أن: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حُدو الشيء يقال ساقه يسوقه سوقا، والسيقة: ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأَسَقْتُه والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره وجمعه سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها"[1].

وقال ابن منظور: "السوق: معروف، ساق الإبل يسوقها سَوْقاً وسِياَقاً، وهو سائق وسوَّاق، شدد للمبالغة (...) وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة (...) فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تساوق، أي ما تتابع، والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضا (...)

وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل (...) وساق بنفسه سياقا: نزع بها عند الموت، تقول رأيت فلانا يسوق سوقا أي ينزع نزعا عند الموت. والسياق أصله سِوَاق فقلبت الواو ياء لكسرة السين وهما مصدران من ساق يسوق"[2].

"والسياق مهر المرأة، قيل له ذلك؛ لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهرا"[3].

---

[1]– ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت، ج3، ص117.

[2]– أبو الفضل بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت– لبنان، ط1، 1997م، ج3، ص369.

[3]– لويس معلوف، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت– لبنان، ط21، 1973م، ص363–365.

وقد عد الزمخشري السياق من المجاز فقال: "هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه كذا، وجئتك بالحديث على سوقه أي سرده..."[1].

ويقصد بالسرد التوالي والتتابع، ومعاني المجازات التي ذكرها الزمخشري تكون وصفا للأسلوب والغرض والغاية، ثم توالي وتتابع مكونات الحديث وهو التتابع المفهوم من سوق الإبل.

ونستخلص مما سبق أن أصحاب المعاجم استخدموا كلمة "سياق" للدلالة على التتابع والتوالي.

2) اصطلاحا:

أ) السياق في التراث العربي:

يرى عبد الفتاح البركاوي أن التراث العربي اهتم بدراسة السياق عبر أسس يمكن أن تشكل ما سماه "النظرية العربية للسياق" أو "السياقية العربية"[2]. كما نقل عن تمام حسان ما يؤكد أصالة فكرة السياق في فكر علماء العرب، يقول تمام حسان: " وحين قال البلاغيون (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبتها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء. ولم يكن "مالينوفسكي" وهو يصوغ مصطلحه الشهير(Context situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها"[3].

كما أن العرب القدامى من لغويين وبلاغيين ومفسرين وأصوليين قد أشاروا إلى مفهوم "السياق"، واستخدموا مصطلحات أخرى للدلالة عليه مثل: الحال، المقام، المشاهدة، الدليل القرينة، والموقف وكلها تصب في معين واحد، غير أنهم وبالرغم من تعويلهم على السياق

[1]– أبو القاسم الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، د.ت، ص314.

[2]– عبد الفتاح البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د.ط، د.ت، ص54.

[3]– تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، د.ط، 1994م، ص372.

والإفادة منه في فهم النصوص وبنائها، إلا أنه لم يعتد به مصطلحا قائما؛ بدليل أنه لم يوضع له تعريف معين، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر[1].

ولعل عبارة الجاحظ "لكل مقام مقال" التي تعد من جوامع الكلم توافق ما توصل إليه اللغويون المحدثون حول مفهوم السياق، ولاسيما سياق الموقف، لاشتماله على عنصرين أساسيين تتفرع منهما سائر العناصر المكونة للسياق وهذان العنصران هما: المقال أو الكلام، أيا كان نمطه أو وظيفته أو الوسيلة التي استخدمت في إيصاله، والمقام وهو مجموع الظروف المصاحبة للحدث الكلامي، والتي تشتمل على علاقة المتكلم بالمخاطب والاعتبارات الخاصة لكل منهما، بالإضافة إلى موضوع الكلام والغاية منه، والمناسبة التي جرى فيها والأثر الذي يتركه وما إلى ذلك.

ويمكن أن نجمل القول في مفهوم السياق في التراث العربي فيما يأتي:

- أولا: أن السياق هو الغرض؛ أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبر عنها بلفظ "السياق".
- ثانيا: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظا "الحال والمقام".
- ثالثا: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام[2].

ب)السياق عند المحدثين:

إن فكرة السياق لم تكن جديدة عند الغربيين، وإنما كانت امتدادا لجهود الدرس اللغوي العربي، ولكنهم صاغوا هذه الفكرة في شكل نظرية؛ حيث كانت البداية الأولى لنشأة فكرة السياق عند بلومفيلد (L.Bloomfield) رائد المدرسة السلوكية التي ترى أن لا قيمة تذكر للألفاظ خارج استعمالها وتداولها[3].

---

[1]- ردة الله بن ردة الطلحي، دلالة السياق، جامعة أم القرى، ط1، 1418هـ، ص38.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص45-46.

[3]- أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، دراسة في النحو والدلالة، دار الحامد، عمان- الأردن، ط1، 2011م، ص38-39.

ومع ذلك فقد تمثلت البداية الحقيقية لنظرية السياق في جهود عالم الاجتماع والأجناس البشرية "برونيسلو مالينوفسكي" (B.Malinowsky) عندما صادف صعوبات جمة أثناء ترجمته لبعض الكلمات والجمل في اللغات البدائية إلى اللغة الإنجليزية، فتأكد له أن الكلمات المعزولة عن سياقات الكلام لا تعدو أن تكون أصواتا مبهمة، واقترح حلا لهذه المشكلة من خلال تحليل أنماط السياقات الكلامية من ناحية، ومراعاة المواقف الخارجية أو الظروف غير اللغوية المصاحبة للأداء الكلامي من ناحية أخرى، ومن ثم عرّف معنى الكلمة أو الوحدة اللغوية بأنها الوظيفة التي تؤديها في سياق ما، ثم صاغ عبارته المشهورة التي يمكن ترجمتها "بسياق الموقف أو الظروف الخارجية المصاحبة للأداء الكلامي"[1].

كما صرح فيرث (J.Firth) بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية [2]؛ أي ربط العناصر اللغوية بالمواقف الاجتماعية فتتحدد معاني تلك العناصر على وفق استعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة.

ويرى هاليداي (M.Halliday) أن السياق: «هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية»[3]؛ فالسياق هو الظروف الخارجة عن اللغة والتي يرد الكلام فيها.

وقريبا من هذا المعني ينص هيلمسلاف (L.Hjelmslev) على أن «المقصود بالسياق ليس مجرد النسق المقالي الذي ترد فيه العلامة، إنما هو كذلك السياق المقامي الذي تستعمل فيه باعتبار أن كل عنصر من مقومات السياق المقامي الحالي يمكن التعبير عنه ونقله بواسطة العبارة»[4]؛ أي إن السياق ليس مجرد النظم اللفظي أو اللغوي، وإنما هو البيئة والظروف المحيطة بالعنصر اللغوي والتي أنتج فيها، فالحدث الكلامي ما هو إلا تعبير عن مواقف اجتماعية مختلفة.

---

[1]– ينظر: أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص39–40.

[2]– أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م، ص69.

[3]– المرجع السابق، ص42.

[4]– محمد الشاويش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، كلية الآداب، منوبة– تونس، ط1، 2001م، ص34–35.

3)أقسام السياق:

قسم علماء اللغة المختصون السياق إلى قسمين:

أ.سياق لغوي (داخلي):

أي داخل النص، "ويتمثل في الأصوات والكلمات والجمل كما تتابع في حدث كلامي معين أو نص لغوي"[1]؛ فالسياق اللغوي نابع من الكلمات ورصفها مع غيرها، كما أن السياق اللغوي كل ما يتعلق بالإطار الداخلي للغة أو بنية النص وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللغوية[2]، ويعرفه تمام حسان بقوله: "سياق النص إما أن يكون قرينة تركيبية (نحوية أو معجمية) أو دلالية (قوامها العلاقات النصية)"[3]، ويشمل في العربية الوظائف النحوية ومعاني الأدوات ودلالة الصيغ الصرفية وكل هذه الأمور نابعة من النص اللغوي ولذلك هو سياق داخل الجملة أو النص.

ويقع هذا النوع من السياق في حالة ما إذا وردت الكلمة الواحدة في عدد من الجمل فتحمل في كل جملة معنى مغايرا لمعانيها في سائر الجمل الأخرى، ويمكن التمثيل لذلك بكلمة "يد" إذ نلاحظ اختلاف معناها باختلاف السياق اللغوي الذي وردت فيه كما يأتي:

- قال تعالى: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾[4] تعني القوة والقدرة.
- قال تعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾[5] تعني من دون واسطة.
- وفي قولنا: "له علينا يد" تعني الفضل والتكرم.
- وقولنا: "هذا رجل طويل اليد" تعني الكرم

وهذا فضلا عن اليد المعروفة التي هي عضو من أعضاء جسد الإنسان، فاختلاف معنى كلمة "يد" في كل جملة من الأمثلة السابقة يعود بالدرجة الأولى إلى اختلاف السياق

---

[1]– حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1993م، ص161.

[2]– عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، عمان – الأردن، ط1، 2002م، ص542.

[3]– تمام حسان، اجتهادات لغوية، القاهرة– مصر، ط1، 2007م، ص237.

[4]– سورة الفتح، الآية: 10.

[5]– سورة التوبة، الآية: 29.

اللغوي لكل منها. والعودة إلى المعاجم اللغوية في هذه الحالات قد لا تعود بالفائدة[1]، وبذلك صرح فيرث بأن "المعنى لا ينكشف إلا بتسييق الوحدة اللغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة"[2].

ب.السياق الخارجي أو سياق الحال:

هذا النوع من السياق "يمثله العالم الخارج عن اللغة بما له من صلة بالبحث اللغوي أو النص ويتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشتركين في الكلام أيضا"[3]؛ فالسياق يشمل جملة الظروف والملابسات الخارجية المحيطة بالكلام أو النص والمتعلقة بظروف المتكلم والمخاطَب الاجتماعية والنفسية والثقافية، وكذا البيئة المكانية والزمانية التي أنتج فيها هذا الكلام أو النص اللغوي[4] هذه الظروف المحيطة بالنص الغوي تساعد – وربما تحسم أحيانا – على فهم المعنى المراد.

ويطلق على سياق الحال أكثر من مصطلح: فهو سياق الحال، كما أنه مقتضى الحال والمقام والمسرح اللغوي، والمجريات أو سياق الموقف، وتقف هذه المصطلحات جميعها في مقابل مصطلح سياق المقال أو سياق مكونات النص[5].

وهناك تقسيم آخر للسياق قدمه أحمد مختار عمر نقلا عمر "K.Ammer" ذا أربع شعب: السياق اللغوي، السياق العاطفي، سياق الموقف، السياق الثقافي[6].

* السياق اللغوي:

وهو وقوع الكلمة في سياقات مختلفة فتؤدي لغويا معان مختلفة[7] مثل كلمة "رجل" قد يتغير معناها، فمثلا قولنا: (هذا رجل) للدلالة على أن المشار فمثلا قولنا: (هذا رجل)

---

[1]– ينظر: محمد محمد سعد، في علم الدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة – مصر، ط1، 2002م، ص40–41.

[2]–عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، ص543.

[3]– عبد النعيم خليل، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية ونحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط1، 2007م، ص574.

[4]– ينظر: كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مدخل، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ط، 1994م، ص83.

[5]– يحيى عبابنة، آمنة الزغبي، علم اللغة المعاصر، مقدمات وتطبيق، دار الكتاب الثقافي، أربد– الأردن، د.ط، 2005م، ص37.

[6]– ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص69–71.

[7]– عبد الجليل منقور، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م، ص90.

للدلالة على أن المشار ليه رجل لا غيره، أما قولنا: (سعيد رجل) فهي دلالة على اتصافه بصفات الرجال الحميدة وإذا قلنا: (هذه الفتاة رجل) فهذه دلالة على تشبهها بالرجال أو اتصافها ببعض صفات الرجال.

* السياق العاطفي:

وهو"ذلك الجانب أو المستوى من المعنى الذي يعبر عن شعور المتكلم أو اتجاهه أو رأيه، نحو أمد ما في سياق معين، فعندما نقول فلان جبان أو أنه يخاف فإن المعنى في الحالتين يتضمن صفة الخوف أو الجبن، ولكن الجملة الأولى تحمل في طياتها درجة من الاحتقار والإهانة، أشد مما يحتمله المعنى في الجملة الثانية»[1] والسياق العاطفي هو الذي يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال، مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالا[2]، ودرجة الانفعال هذه تخضع إلى مقاييس تصنفها حسب القوة والضعف مما يتطلب قرائن بيانية تؤكد عمق أو سطحية هذا الانفعال؛ فالكلمة توقض في الذهن شحنة عاطفية يحددها السياق.

* السياق الثقافي:

يحدد هذا السياق "درجة المحيط الذي تعيش بداخله الوحدات المستعملة وغالبا ما يكون المحيط اجتماعيا»[3]، والسياق الثقافي يقتضي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فمثلا كلمة "جذر" لها معنى عند المزارع، ومعنى ثاني عند اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات...إلخ.

* سياق الموقف:

من المسلم به أن "العلاقة بين المفردة والسياق علاقة تكاملية فالمفردة تكوِّن السياق، والسياق يوجه معنى المفردة، وبذلك يتحكم كل واحد منهما في الآخر»[4]؛ فسياق الموقف يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة فتتغير دلالتها تبعا لتغير الموقف أو المقام، فعبارة "السلام عليكم" تحية إسلامية، ولكن قد تتحول إلى معنى المغاضبة والمقاطعة

---

[1]– شحدة فارع، موسى عمايرة وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل، عمان، ط1، 2000م، ص184.

[2]– أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص70.

[3]– عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، ص551.

[4]– صائل رشدي، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، دراسة لسانية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2004م، ص14.

حين يحتد النقاش بين شخصين ويبأس أحدهما من إقناع صاحبه، فيذهب مغاضبا وهو يقول: "السلام عليكم"، فالمقام هنا يصرف معناها من كونها تحية إسلامية.

والذي يعنينا في هذا المقام هو النظر في مفهوم سيبويه لسياق الحال في الكتاب وكيفية تعرضه له، ومدى ارتباط هذه المسألة بمنهج التقعيد الذي سلكه في مجمل كتابه.

4)سيبويه والوجهة الاجتماعية في دراسة اللغة:

عندما نلج كتاب سيبويه لنتلمس فيه المنهج الذي سلكه مؤلفه في دراسة اللغة، نجد أنه تنبه إلى السياق، غير أنه لم يشر إلى لفظة "السياق" وإنما عبر عن مفهومه من خلال العديد من الألفاظ التي تكرر ذكرها في سائر أجزاء الكتاب وأبرز هذه الألفاظ: (متكلم مخاطَب، مخاطبة، استعمال، مستعمل، حال)، وهي ألفاظ تتمحور حول الكلام والمتكلم والمخاطَب، وهي في معظمها متعلقة باللغة المنطوقة لا المكتوبة، في حين أنه قلما نعثر على لفظة تشير إلى الكتابة بشتى أنواعها. كما أن هناك ألفاظ أخرى تتصل بمدى التفاهم أو التواصل الذي يتم بين المتكلم والمخاطَب أو انعدامه نحو: التباس، ملتبس[1]؛ وهذا يعني أن سيبويه كان أكثر اهتمام باللغة الحية، لأنها اللغة التي أحسن مصاحبتها وبنى عليها استنباطاته اللغوية وقواعده النحوية، حيث يقول الأخفش الأصغر علي بن سليمان: "وعمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها"[2]، ويمكن تفسير هذه العبارة في ضوء سياقها الذي وردت فيه والخروج بحقيقة علمية مُؤداها أن سيبويه – لا محالة– وضع قواعده من خلال لغة مُنشدَة منطوقة حيّة تتفاعل مع الواقع تفاعلا، وأنه أسس قواعده على ثقافة شفاهية، واعتمد النصوص البليغة التي يطابق فيها الكلام مقتضى الحال، وفي هذا دون شك إشارة إلى العنصر الاجتماعي "السياق" الذي اعتمده سيبويه.

كما أن الكتاب يزخر بالأمثلة التي تؤكد أن سيبويه قد درس الطبيعة الاجتماعية للنشاط اللغوي وأثرها في البنية الداخلية للغة، وكذا التعابير في حالة تفاعلاتها الحيوية التخاطبية، ويظهر ذلك جليا في أبواب كثيرة منها تلك التي يعقدها في النعت والبدل؛ حيث

---

[1]– ينظر: أسعد خلف الله، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص51.

[2]– عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، د.ت، ج1، ص372.

تناول بعض التراكيب التي تتضمن أنماطا مختلفة من النعوت، نحو "مررت برجلٍ صالحٍ بل طالحٍ" فيقول: «إن المتكلم أحدث تبديلا في الوصف، أبدلت الصفة الآخرة من الصفة الأولى وأشركت بينهما (بل) في الإجراء على المنعوت»، ثم يردف قائلا: «ولكنه يجيء على النسيان أو الغلط، فيتدارك كلامه؛ لأنه ابتدأ بواجب»[1].

وكذلك يقول في باب المبدل من المبدل منه: «وذلك قولك: مررت برجل حمار، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن، فأما المحال أن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثم تبدل الحمار مكان الرجل فتقول: حمار، إما أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإما يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار بعدما كنت أردت غير ذلك»[2].

فنلاحظ من خلال النصين السابقين أن العبارات التي أوردها سيبويه ليست جزءا من كلام مكتوب ولا يمكن أن تكون كذلك، لأنه شابها شيء من الغلط أو النسيان، وهذا لا يحدث إلا مع المتكلم الذي يتدارك خطأه أو نسيانه فيصحح كلامه، أما من يكتب فإنه سرعان ما سيصحح خطأه[3].

بالإضافة إلى أن أغلب الشواهد التي ساقها سيبويه ذات طبيعة حوارية – تخاطبية بدءاً من الآيات القرآنية التي تنوعت مدلولاتها ما بين الخطاب المباشر أو غير المباشر وبين الإخبار والتقرير، مرورا بالشعر الصادر عن متكلم إلى جمهور من المستمعين، وانتهاءً بالتعابير والأقوال المستقاة من أفواه العرب[4]. «وقد ذهب كارتر (Carter) إلى أبعد من ذلك حين اعتبر سيبويه كان ينظر إلى الكلام على أنه شكل من أشكال السلوك الاجتماعي بدليل

[1]– سيبويه، الكتاب، ج1، ص434.

[2]– المصدر نفسه، ج1، ص339.

[3]– انظر ما يورده سيبويه في باب "أم" المنقطعة حيث يتبين مدى تركيزه على الكلام المنطوق العفوي الذي يصدر عن المتكلم.

[4]– أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص52.

أنه أطلق فيه أحكاما أخلاقية أو ثقافية فهو إما حسن أو قبيح أو خبيث، شأنه في ذلك شأن سائر أنواع السلوك الإنساني»[1].

وهكذا يلتقي منهج سيبويه في تحليله للغة مع أحدث الاتجاهات اللغوي الغربية رغم تقادم عهده؛ حيث تنبه إلى السياق وما يلابسه من الظروف والمتغيرات والمعطيات الخارجية التي تكتنف الموقف الكلامي، من حال المتكلم والمخاطَب، وموقف الخطاب، مما يجعلنا نقر من دون تردد: «إن سيبويه بحق يعد رائد النظرية السياقية؛ إذ طبق عمليا وبإحكام جميع عناصر هذه النظرية مع أدق تفاصيلها، ولم يترك – تقريبا– شيئا مما عرفته الدراسات الاجتماعية الحديثة إلا ومارسه تطبيقا في كتابه»[2]، ولعل استعماله مصطلح "الحال" الذي يعود إلى أستاذه الخليل، "يعد أقدم مصطلح في التراث العربي والنحوي، يقترب من مفهوم "سياق الحال أو سياق الموقف في أيامنا"[3].

III. عناصر سياق الكلام عند سيبويه:

على هدي مما سبق، يمكن أن نحدد بعض عناصر سياق الكلام عند سيبويه ثم نفصل الحديث عن تأثير كل من هذه العناصر في العلاقات النحوية على حدة، ولعل أهم هذه العناصر:

1) المتكلم:

قبل الحديث عن دور المتكلم في الحدث الكلامي، لا بد من تحديد هوية المتكلم، لأن في الكتاب فئات من المتكلمين وهم:

أ) المتكلم "الشاعر": وهو الذي ينزله سيبويه منزلة خاصة، يحتكم إلى شعره أحيانا ويتجاوز عن الكثير من "أخطائه" أو "شواذاته" أحيانا أخرى، بحجة أن للشعر ضرورات تبيح

---

[1]– أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، نقلا عن: Carter, An Arab Grammarian of the eighth centry, JAOS ,93,1973, p146 .

[2]– محمد سالم صالح، الدلالة والتقعيد النحوي، دراسة في فكر سيبويه، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م، ص430.

[3]– المرجع نفسه، ص430.

المحظورات اللغوية، شرط أن لا تصبح هذه الضرورات قواعد عامة تستخدم في الكلام العادي، إذ يقول: «واعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام ...»[1]، «وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها»[2].

ب) المتكلم "المتعلم": وهو الذي دأب سيبويه على توجيهه وتعليمه أصول الكلام العربي فنراه يطلب إليه في كل حين ترسم سنن العرب في التعبير، والسير وفق قواعد المتكلمين الأصليين للغة، وهو يتوجه إليه بالحديث، آمرا وناهيا وناصحا: «واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعدما أضمرت العرب وتظهر ما أظهروا...»، «فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسَّر»[3].

ت) المتكلم "المخطئ": وهو العربي الذي يشوب كلامه بعض الضعف، والذي يعمد سيبويه في كثير من المواضع في الكتاب إلى تصويب بعض تراكيبه أو عدها ضعيفة أو قبيحة لا يؤخذ بها ولا يعتد بها، كما يظهر في قوله: «واعلم أن ناسا من العرب يغلطون ...»[4]، «فهذا كلام خبيث ضعيف»[5]...إلخ.

ث) المتكلم "الثقة": (وهو المتكلم المعول عليه في دراستنا) وهو العربي الموثوق "بعربيته" وفصاحة لغته وخلوها من الأخطاء، وهو المرجع الأساس لسيبويه في تقعيده للغة واستنباطاته وآرائه؛ لأن كلام هذا "المتكلم" يسير وفق القياس[6]، وهو إلى ذلك يملك معرفة فطرية بوجوه النحو وحالاته المختلفة دونما إلمام بمصطلحات النحويين، وقد أشار سيبويه إلى هذه الفئة من المتكلمين بصيغ مختلفة وفي مواضع كثيرة لا تحصى، ومن ذلك:

---

[1]– سيبويه، الكتاب، ج1، ص26.

[2]– المصدر نفسه، ج1، ص32.

[3]– المصدر نفسه، ج1، ص265–266.

[4]– المصدر نفسه، ج2، ص155.

[5]– المصدر نفسه، ج2، ص124.

[6]– أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص68.

"وسمعت من أثق به من العرب"، و"سمعناه ممن ترضى عربيته"، و"أنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس"[1].

* أمثلة المتكلم:

بعد أن تحددت هوية المتكلم المقصود، نورد عددا من الأمثلة من الكتاب التي تبرز دوره في تركيب بنية الكلام[2]، يقول سيبويه:

1- في الباب الذي عقده في الأفعال التي تستعمل وتلغى مثل ظن وحسب: "...وإنما كان التأخير فعل الشك، أقوى لأنه إنما يجيء بالشك بعدما يمضي كلامه على اليقين، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقين ثم يدركه الشك (...) فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيّته من الشك أعمل الفعل (...) فيقول: أظن زيدا ذاهبا"[3].

2- "وتقول: قم يدعوك؛ لأنك لم ترد أن تجعل دعاء بعد قيامه ويكون القيام سببا له ولكنك أردت: قم إنه يدعوك. وإن أردت ذلك المعنى جزمت"[4].

3- "ومن النعت أيضا: مررت برجلٍ لا قائمٍ ولا قاعدٍ، جر لأنه نعت كأنك قلت: مررت برجلٍ قائمٍ، وكأنك تحدث من في قلبه أن ذلك الرجل قائم أو قاعد فقلت لا قائم ولا قاعد لتخرج ذلك من قلبه"[5].

4- "فقولك: هذا عبد الله منطلقا (...) فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو عبد الله. ولم يكن ليكون هذا كلاما حتى يبنى على ما قبله. فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه (...) والمعنى أنك تريد تنبيهه له منطلقا لا تريد أن تعرفه عبد الله لأنك ظننت أنه يجهله..."[6].

---

[1]- ينظر: محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ط، 1975م، ص35-42.

[2]- تكثر المواضع التي يؤكد فيها سيبويه بأن المعنى الذي يريده المتكلم هو الذي يحدد الحالة الإعرابية للكلمة، فلا يكاد يخلو باب من هذا الأمر، انظر على سبيل المثال: الكتاب، ج1، ص312-314 و319.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص120.

[4]- المصدر نفسه، ج3، ص98.

[5]- المصدر نفسه، ج1، ص429.

[6]- المصدر نفسه، ج2، ص78.

5- «وإن قلت: رأيت فأردت رؤية العين (...) فهو بمنزلة ضربت، ولكنك إنما تريد بوجدت علمت، وبرأيت ذلك أيضا، ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول: رأيت زيدا الصالحَ»[1].

6- «وإن شئت قلت: هو خيرٌ عملا وأنت تنوي منك (...) فإن أضفت قلت: [هذا] أوّل رجل (...) [وهو يريد الجمع] أول الرجال، فحذف استخفافا واختصارا»[2].

نال المتكلم – كأحد مكونات السياق– قسطا من اهتمام صاحب الكتاب؛ إذ وظف سيبويه "المتكلم وإرادته" في إقرار قواعد نحوية متعددة، ويظهر ذلك من خلال الأمثلة السابقة ففي النص الأول يقرر أن "نية" المتكلم هي التي تحدد إعمال ظن وأخواتها من الأفعال أو إلغاء عملها، وذلك وفقا لحالة هذا المتكلم، فإذا كان شاكا في كلامه أعمل الفعل فيقول: "أظن زيداً ذاهباً"، أما إذا غلب يقينه شكّه أخر الفعل "ظن" وبذلك يضعف تأثيره في إضفاء معنى الشك لذلك يتوقف بناء جملة الشك وترتيب موضع فعل الظن فيها على إرادة المتكلم فيتوجب على المتكلم – كما يرى سيبويه– أن يتوخى الدقة في اختيار النسق التعبيري لكي يطابق المعنى الذي يريده، ففي باب "أم" التي تأتي في الاستفهام يفرق سيبويه بين أن يلي همزة الاستفهام اسم أو يليها فعل، ووجه الصواب في ذلك لا يتوقف على قاعدة نحوية تجيز مجيء الاسم دون الفعل أو العكس، وإنما يعتمد الجواز على قصد المتكلم فقولنا على سبيل المثال: "أزيد عندك أم عمرو؟، وأزيدا لقيت أم بشراً؟" يختلف في معناه عن قولنا: "أضربت زيدا أم قتلته؟"[3]، ففي الجملة الأولى غاية الاستفهام معرفة مَنْ مِنَ الرجلين موجود عند المسؤول، فحسن ههنا تقديم الاسم؛ لأنك تعلم أن المسؤول قد لقي أحدهما أو عنده أحدهما ولا تدري أيهما هو، فلا تسأله عن اللقي وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو. أما في الجملة الثانية فإن موضع السؤال هو الفعل الذي صدر عن المسؤول ولذلك قدم الفعل.

وينطبق هذا المعنى – أي نية المتكلم وقصده– على المثال الثاني؛ إذ إن صيغة العبارة "قم يدعوك" توحي بأنها طلبية، غير أن سيبويه يوضح بأن المعنى الذي يريده المتكلم ينكشف بإعادة الكلمة التي حذفت، بحيث تصبح الجملة "قم إنه يدعوك" فلا نجد معنى

[1]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص40.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص203.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص169-171.

الطلب، ويذكر لها توجيهين: الأول جزم الفعل "يدعوك"، على الجزم في جواب الطلب والتوجيه الثاني الرفع؛ أي إذا وجه المتكلم إلى المخاطَب الأمر بأن يقوم حتى يكون هذا سببا لدعوته جاز الجزم، أما إذا كان الأمر مجرد إخبار وعرض من المتكلم للمخاطب فيرفع الفعل.

وتتجلى في النصيين الثالث والرابع أهمية معرفة هدف المتكلم والغاية التي يبتغيها وعلاقة ذلك بالمخاطَب، ففي النص الثالث يهدف المتكلم إلى تغيير وجهة نظر المخاطَب والتأثير عليه، وذلك عن طريق وصف رجل بأنه لا قائم ولا قاعد، إذا كان المخاطب يظن بأنه إما قائم أو قاعد، "فتخرج ذلك من قلبه". فسيبويه هنا يسوغ هذا التركيب في جملة النعت (لا قائمٍ ولا قاعدٍ) التي يشبهها بالنعت بالكلمة المفردة كأنك قلت: مررت برجلٍ قائمٍ استنادا إلى مراد المتكلم من هذا الوصف.

الأمر نفسه بالنسبة للمثال الرابع الذي يهدف فيه المتكلم إلى إيصال معلومة معينة من خلال ذكر الحال في قوله "هذا عبد الله منطلقاً"؛ إذ ليس الغرض تعريف المخاطَب بعبد الله ولكن تنبيهه إليه في حال انطلاقه، ولو لم يكن هذا مراد المتكلم لما جاز أن يأتي "منطلقا" حالا منصوبا؛ فإذا قلت: "هذا عبد الله منطلقاً" فالتقدير: انظر إليه منطلقا، أو انتبه إليه منطلقا، فأنت تنبه المخاطب لعبد الله في حال انطلاقه، فلا بد من ذكر "منطلقا"؛ لأن الفائدة به تنعقد، ولم ترد أن تعرفه إياه، وهو يقدِّر أنه يجهله.

ويبني سيبويه في المثال الخامس تأثير "حال" المتكلم في تحديد معنى الفعل إذا كان يحتمل معنيين، نحو "رأيت" في مثل قولنا: "رأيت زيداً الصالحَ"، فإذا كان المتكلم أعمى كان من الواضح أن معنى "رأيت" في الجملة السابقة ليس بمعنى الرؤية البصرية ولكن بمعنى العلم (علمت)، لذلك "الصالحَ" هنا مفعول ثانٍ وليس نعتا لزيد، وهكذا يكون الفرق بين المعنيين قائما على حقيقة خارجية متعلقة بالمتكلم وخارجة عن نظام اللغة الداخلي.

أما المثال الأخير فإنه يشير إلى حق المتكلم في الاستخفاف والاختصار في الكلام على أن يبقى المحذوف في "النية"؛ إذ يجوز للمتكلم أن يقول: "هو خيرٌ عملا" وهو ينوي قول: "هو خيرٌ منك عملا"، كما يسوغ له أن يقول: "هذا أول رجل" وهو يريد "هذا أول الرجال" إذا أراد الاختصار في الكلام.

وذكر سيبويه العديد من الأمثلة المشابهة التي تنضوي تحت الاستخفاف والاختصار من ذلك حذف الخبر بعد لولا[1]، حيث يفسر حذفه في ضوء استعمال المتكلم؛ لأن ما يكثر استعماله يكون معلوما، مفهوم القصد، لذلك يعمد المتكلم إلى الإيجاز والاختصار، فكثرة الاستعمال سوغت للمتكلم حذف الخبر بعد لولا، وقصد سيبويه بكثرة الاستعمال هنا أنه صار معلوما مع لولا لأنها دالة على امتناع لوجود، والمدلول على امتناعه هو الجواب والمدلول على وجوده هو المبتدأ، فصح الحذف لتعيين المحذوف، ففي قولهم "لولا علي لهلك عمر" لم يُشك في أن المراد: وجود علي (رضي الله عنه) منع من هلاك عمر (رضي الله عنه).

ويعلل سيبويه الحذف بقوله: "...أنه جاز حيث كثر في كلامهم، وحذفوه تخفيفا وهم ينوونه"[2]؛ إذ يجوز للمتكلم إسقاط عناصر من كلامه والإبقاء عليها في نيته دون الإخلال بالمعنى، وذلك لميل العرب ونزوعهم إلى الإيجاز في كلامهم فيجتزئون منه ما هو ملحوظ في الذهن، حاضر في النية، والمتكلم العربي لم يكن ليلجأ إلى هذا الاختصار والحذف لو لم يكن متيقنا من قدرة المخاطَب أو المتلقي على فهم الكلام على الوجه الصحيح، وهذا ما أكده الخليل عندما سأله سيبويه عن حذف جوابات الشرط في آيات القرآن الكريم بقوله: "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبَر لأي شيء وضع هذا الكلام"[3]، فانتبه سيبويه إلى وجود الاتصال في العملية اللغوية ووجود كافة العناصر المتممة للتواصل بين المتكلم والمخاطَب؛ إذ لابد أن يعلم المخاطب بقصد المتكلم، ومن ثم لا يجوز للمتكلم أن يطلق جملة ويقصد بها شيئا يخفى على المخاطَب، وهو ما سيتجلى عند الحديث عن دور المخاطَب في عملية بناء الكلام.

2) المخاطَب:

للمخاطب في الكتاب بالغ الأهمية، فهو العنصر السياقي الرئيس الذي يخول المتكلم استخدام أساليب مختلفة في التعبير ويسمح له بممارسة أعراف لغوية متعددة استنادا إلى علم

[1]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج2، ص123.

[2]– المصدر نفسه، ج1، ص17.

[3]– أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص75.

المخاطَب الذي ألف هذه الأساليب، كما قال السهيلي: "الكلام مبدؤه من المتكلم ومنتهاه عند المخاطَب ولولا المخاطَب ما كان كلام المتكلم لفظا مسموعا، ولا احتاج إلى التعبير عنه"[1] ولهذا لا يجوز للمتكلم استعمال تراكيب مخالفة لما تعارف عليه القوم المتكلمون باللغة خشية التباس المعنى عليهم، فإن فعل ذلك كان "ملغز تارك لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم"[2]، ولذلك يرى كارتر أن السامع أو المخاطَب عند سيبويه لا يشكل طرفا أساسيا في تكوين الخطاب فحسب، بل له كذلك الأثر الأكبر في تحديد بنيته وعناصره اللغوية، "فكثير مما نقوله محكوم بما نعتقد أن المخاطب يتوقعه، وهو الذي نستبق أسئلته وتساؤلاته "[3].

وهذه بعض الأمثلة على دور المخاطَب، يقول سيبويه:

1- "واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة فالذي تشتغل به كان المعرفة؛ لأنه حد الكلام (...) تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر فإذا قلت: كان زيد فقد بدأت بما هو معروف عنده مثله فإنما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليما فقد علمته مثل ما علمت. فإذا قلت: كان حليما فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة، فهو مبدوء به في الفعل وإن كان مؤخرا في اللفظ فإن قلت: كان حليمٌ أو رجلٌ فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تخبر المخاطَب عن المنكور وليس هذا بالذي ينزل به المخاطَب منزلتك في المعرفة، فكرهوا أن يَقْرَبُوا بَاَب لبْسٍ"[4].

2- "هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة: وذلك قولك: ما كان أحدٌ مثلك (...) وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأن المخاطَب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا. وإذا قلت: كان رجل ذاهبا، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله، ولو قلت: كان رجل من آل فلان فارسا، حسن، لأنه قد يحتاج إلى أن

---

[1]- عبد الرحمان بن عبد الله السهيلي، نتائج الفكر في النحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992م، ص170-172.

[2]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص308.

[3]- أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، نقلا عن: Carter :An Arab Grammarian of the eighth centry , p194.

[4]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص47-48.

تعلمه أن ذلك في آل فلان وقد جهله، ولو قلت: كان رجل في قوم عاقلا لم يحسن، لأنه استنكر أن يكون في الدنيا عاقل وأن يكون من قوم. فعلى هذا النحو يحسن ويقبح»[1].

3- «هذا باب متصرف رويد. ومن ذلك قولك للرجل تراه يعالج شيئا: رويدا (...) واعلم أن رويدا تلحقها الكاف (...) وذلك قولك: رويدك زيداً، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعني، وإنما حذفها في الأول استغناء بعلم المخاطَب أنه لا يعني غيره فلحاق الكاف كقولك: يا فلان للرجل حتى يقبل عليك، وتركها كقولك للرجل: أنت تفعل، إذا كان مقبلا عليك بوجهه منصتا لك»[2].

4- (باب الجمع في المنعوت والتفريق في النعت) «مررت برجلين مسلمٍ وكافرٍ (...) كأنه أجاب من قال: بأي مضرب مررت؟ وإن شاء رفع كأنه أجاب من قال: فما هما؟ فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطَب، لأنه إنما يجري كلامه على قدر مسألتك عنده لو سألته»[3].

5- «يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحداً في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: أتاني رجل لا امرأة فيقال: ما أتاك رجل أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليوم رجل، أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجال، أي أتاك الضعفاء، فإذا قال: ما أتاك أحد صار نفيا لهذا كله»[4].

6- «وتقول: إذا كان غد فأتني (...) والمعنى أنه لقي رجلا فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء فأتني، ولكنهم أضمروا استخفافا لكثرة كان في كلامهم، لأنه الأصل لما مضى وما سيقع»[5].

يرى سيبويه أن صحة التواصل تقتضي حضور المخاطَب دائما في ذهن المتكلم، فإذا أراد أن يبدأ حديثا مع المخاطَب لا بد أن يبدأ بشيء معروف بينهما حتى يتسنى له بناء الكلام، فتكون بينها نقطة لقاء معرفية تسمح بامتداد الكلام وتكوين الجمل التالية، ويتضح ذلك من خلال المثال الأول إذ يرى سيبويه أن صحة الجملة الاسمية مشروطة بأن يكون

[1]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص45.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص244.

[3]- المصدر نفسه ، ج1، ص432.

[4]- المصدر نفسه ، ج1، ص55.

[5]- المصدر نفسه، ج1، ص224.

مبتدؤها معروفا بين المتكلم والمخاطب، بل "الأعرف" بينهما لأنه أصل الكلام؛ وكلمة "الأعرف" التي أتت في نص سيبويه توحي بأنه ينبغي للمتكلم الاجتهاد في الابتداء بما هو "أعرف" بينه وبين المخاطَب.

كما أن صحة الجملة الخبرية مرتبطة بما يعرفه المخاطَب أو يتوقع سماعه، فإذا قال المتكلم: "كان زيد" فقد بدأ المتكلم بما يعرفه هو والمخاطَب على السواء، ولكن المخاطب يبقى في انتظار الخبر ليكتمل لديه المعنى فيقول المتكلم "حليما"، أما إذا قال المتكلم "كان حليما" فيكون قد ذكر الخبر وأغفل ذكر المُخبَر عنه، وبذلك لا يستقيم المعنى لدى المخاطب حتى يعرف صاحب هذه الصفة، بينما لا يصح البدء بنكرة مثل "كان رجل" أو "كان حليما"؛ لأنه لا يجوز أن تخبر المخاطَب عن المنكور لما فيه من لبس وعدم فهم، فالبدء بالنكرة يعني عدم تحديد نقطة معرفية تصلح لبناء الكلام عليها، وما سيأتي بعد هذه النكرة لغو لا فائدة فيه للمخاطَب، إذ الهدف من الجملة الاسمية وخبرها أن المتكلم يريد نقل فائدة عن شيء محدد ومعروف للمخاطَب، وأن المتكلم يريد المساواة بينه وبين المخاطَب في الفائدة التي يعرفها عن هذا الشيء المحدد، فإذا بدأ بنكرة ضاعت هذه الفائدة ولم يستطع المخاطَب وضعها موضعها المناسب والاستفادة منها، فما الفائدة التي يُحصِّلها المخاطَب عندما نبدأ بكلمة "رجل" النكرة في قولنا: "كان رجل ذاهبا" فمن الطبيعي والمنطقي أن أي رجل يذهب، فهذه الجملة وأشباهها لا تحمل أية فائدة للمخاطَب؛ لأن النكرة تطلق على جنس يشمل أفراد كثيرة، فأي منهم ستُناط به الفائدة التي سيقدمها المتكلم.

إذن فالأساس الذي تبنى عليه الجملة الاسمية هو ألا تُبدأ بنكرة بحال من الأحوال إلا إذا تم «تضييق دائرة التنكير والعمومية، التي تكون في النكرة، وتقع الفائدة للمخاطَب»[1].

ومن الحالات التي تضيق فيها دائرة التنكير والعمومية، أن تقع النكرة في سياق نفي كما يشير سيبويه في باب "تخبر فيه عن النكرة بنكرة"، كما في المثال الثاني، حيث يتحدث عن مجيء الخبر نكرة لمبتدأ نكرة، ويشترط لقبول التركيب أمرا يرتبط بالمخاطَب وحسب وهو أن يكون الخبر متضمنا أمرا يحتاج المخاطَب إلى معرفته، أو مجهولا بالنسبة إليه لذلك تقبل عبارة مثل "ما كان أحد مثلك"؛ إذ يرى جواز الإخبار عن نكرة بنكرة لأن "أحدا"

[1]– أبو سعيد السيرافي، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ج1، ص317.

في موضع "الناس"، والمراد أن يعرفه أنه فوق الناس كلهم حتى لا يوجد له مثل، أو دونهم فلا يوجد له في الصفة مثل، وهذا معنى يجوز أن يجهل مثله، فيكون في الإخبار عنه فائدة أما عبارات مثل "كان رجل ذاهباً" أو"كان رجل في قوم عاقلا" فإنها قبيحة لا تحسن لأنها من العبارات العامة جداّ، وليس لها مدلول واضح؛ أي إنها لم تقدم للمخاطَب أية معرفة جديدة، مع أنها من الناحية التركيبية صحيحة، فيما جملة "كان رجل من آل فلان عاقلا" لها مدلول محدد، لأن المخاطَب قد يحتاج أن تعلمه أن ذلك في آل فلان وقد يجهله لذا يعد هذا التركيب حسب سيبويه حسنا.

أما في النص الثالث يبيِّن سيبويه مدى تأثير حال المخاطب في الزيادة في مبنى الكلمة أو الانتقاص منها، فكلمة "رويد" تلحق بها "الكاف" تبعا لوضع المخاطَب، فإذا كان التخاطب مباشرا بينه وبين المتكلم اكتفى بقوله "رويدا"، أما إذا كان المخاطَب في جماعة وأراد المتكلم تنبيهه ألحق الكاف بـ"رويد" مخافة التباس من يعني بمن لا يعني؛ فحذفت الكاف من الأولى "رويداً" لعلم المخاطَب أن المتكلم يقصده بكلامه لا غيره، وألحقت بالثانية "رويدك" لتنبيه المخاطَب بأنه المقصود إذا كان في جماعة، ويسوغ سيبويه إلحاق المتكلم الكاف بكلمة "رويداً" قياسا على قوله "يا فلان" للمخاطَب إذا لم يكن مصغيا إليه حتى ينتبه أما إذا كان منصتا مقبلا إليه بوجهه فلا حاجة له حينئذٍ لمناداته أو لزيادة الكاف في "رويد".

ومن طريف ما أبرزه سيبويه متعلق بالمخاطَب إيضاحه أن اللغة تحترم درجة المخاطَب من حيث قربه وبعده من المتكلم، فالمخاطَب له الأولية في الحديث عنه عن الأبعد، ويبرز ذلك قائلا: «فقولك: أعطانيه وأعطانيك، فهذا هكذا إذا بدأ المتكلم بنفسه، فإذا بدأ بالمخاطَب قبل نفسه فقال: أعطاكني، أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال: أعطاهوني فهو قبيح لا تتكلم به العرب (...)، وإنما قبح عند العرب كراهية أن يبدأ المتكلم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب (...) وإنما كان المخاطب أولى بأن يبدأ به من قبل أن المخاطَب أقرب إلى المتكلم من الغائب، فكما كان المتكلم أولى بأن يبدأ بنفسه قبل المخاطب، كان المخاطب الذي هو أقرب من الغائب بأن يبدأ به قبل الغائب»[1].

فقد استغل سيبويه المخاطب مع المتكلم والغائب في تفسير استعمال الضمير عند اجتماع المخاطب مع المتكلم أو المخاطب مع الغائب، فهو ينبه على أنه عند استخدام

[1]– سيبويه، الكتاب، ج4، ص364.

ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب يجب أن نبتدئ بالأقرب قبل الأبعد؛ أي نبدأ بالمتكلم قبل المخاطب، والمخاطب قبل الغائب، «والعلة في ذلك أن الأولى أن يبدأ الإنسان بنفسه؛ لأنها أعرف وأهم عنده، وكما المختار أن يبدأ بنفسه، كان المختار تقديم المخاطَب على الغائب؛ لأنه أقرب إلى المتكلم»[1].

في النص الرابع نجد أن سيبويه لم يقف في مسألة النعت والمنعوت عند الحكم الإعرابي فحسب، ولكنه جعل سياق الموقف المحدد للبنية التركيبية لجملة النعت، وذلك من خلال تساؤلات المخاطَب المفترضة، فشعر أن في العبارة زيادة وتفصيلا سببه استفسار المخاطَب واستزادته لتوضيح المعنى، فجاء النعت المفرق مجرورا ليوافق صيغة سؤال المخاطَب المفترض: بأي مضرب مررت؟، وقد تأخذ الجملة نفسها حكما نحويا آخرا بالرفع أي رفع النعت "مسلم وكافر" إذا اختلف السؤال الملقى على المتكلم، كأن يقول المتكلم: مررت برجلين، فقال المخاطَب: فما هما؟ فردَّ المتكلم: مسلمٌ وكافرٌ، فرفع على اعتبار أنهما خبران لمبتدأ محذوف يفهم من السياق.

ويبرز في النص الخامس تعدد التفسير لجملة واحدة نطق بها المتكلم، وذلك تبعا لما قصده من كلامه وما فهمه السامع، فعبارة "أتاني رجلٌ" تحمل ثلاث دلالات:

1. أتاني رجل واحد.
2. أتاني رجل لا امرأة.
3. أتاني رجل ذو قوة ولم يأتني ضعيف.

وكل هذه المعاني تستبين من خلال ردة فعل السامع الذي فهم في كل مرة قصد المتكلم فيرد عليه بما يناسب المعنى، ولكن بجملة "ما أتاك رجل" فتنفي المعاني التي أسلفنا ذكرها؛ لأن "أحد" تنفي المعنى نفيا عاما.

ونصل إلى النص السادس والأخير والذي يتضمن حذفا وإسقاطا لعدد من الكلمات لدراية المخاطَب بالموضوع، فلم يحتج إلى تفصيل في الكلام، فعبارة "إذا كان غد فأتني" تقال في مناسبات مختلفة تبعا لسياق الأحداث التي جرت، كما يفسرها سيبويه في قوله: «والمعنى أنه لقي رجل فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في

[1]– ابن علي بن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تح: إميل يعقوب، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، ص321.

غد فأتني". وفي الوقت نفسه يعلل هذا الاختزال في الكلام على سبيل طلب الخفة وكثرة الاستعمال وقبل ذلك كله لعلم المخاطَب؛ إذ قيد سيبويه الحذف والاختصار والإيجاز في الجملة بعلم المخاطَب وفهمه للمعنى، وعدم وجود أي لبس في المعنى الذي يصله.

وهكذا يتبين لنا مدى اهتمام سيبويه بالمخاطَب الذي يمنحه دورا كبيرا في تحديد استقامة الكلام وتشكيل خطاب المتكلم، مستأنسا في ذلك بدلالة الموقف، فهو يعي أن اللغة لا تنطق في حد ذاتها بل في ضوء الملابسات والظروف المحيطة بالمشاركين في الكلام وهو ما سيتضح من خلال دور دلالة الموقف.

3)دلالة الموقف (الحال المشاهدة):

وتعني الحال التي يولد فيها الكلام، وهي الأمور المشاهدة في الموقف الكلامي وما يحيط بالشخص وما يلابس ظروفه، ودلالة الحال تجيز للمتكلم الاستغناء عن بعض الألفاظ واختزالها لأنها مفهومة لدى السامع من المشاهدة[1].

وقد اعتنى سيبويه بسياق الحال واعتمده في التقعيد والتوجيه في كثير من المسائل وهذا دليل آخر على تعامله مع اللغة الحية المنطوقة؛ إذ لم يفصلها عن واقعها ومحيطها الخارجيين، ولم يدرسها بعيدا عن متكلميها، وهذه بعض الأمثلة على اعتماد سيبويه السياق:

1- "هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره (...) وذلك قولك: إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج، قاصدا هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة حيث زكنت[2] أنه يريد مكة كأنك قلت: يريد مكة والله، على قولك: أراد مكة والله، كأنك أُخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكة والله، أي أراد مكة إذ ذاك (...) أو رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس فقلت: القرطاسَ والله، أي يصيب القرطاس، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاسَ والله، أي أصاب القرطاس"[3].

2- "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبني عليه مظهرا، وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربي، كأنك قلت ذاك عبدُ الله أو هذا عبدُ الله. أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت:

---

[1]- ينظر: أسعد خلف الله، سياق الحال في كتاب سيبويه، ص84.

[2]- زَكِنَ الخبر زَكَناً : علمه، وقيل هو الظن الذي هو عندك كاليقين، انظر لسان العرب، مادة (زكن)، ج21، ص1848.

[3]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص257-258.

زيدٌ وربي، أو مسست جسدا أو شممت ريحا فقلت: زيدٌ، أو المسكُ، أو ذقت طعاما فقلت: العسلُ»[1].

3- «هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره (...) ومن ذلك قول العرب: من أنت زيداً، فزعم يونس أنه على قوله: من أنت تذكر زيداً (...) ولا يكون من أنت زيداً إلا جوابا، كأنه لما قال: أنا زيدٌ، قال فمن أنت تذكر زيدا»[2].

4- «هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره (...) وذلك قولك: زيداً وعمراً، ورأسه، وذلك أنك رأيت رجلا يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً، أي أوقع عملك بزيد، أو رأيت رجلا يقول: أضرب شر الناس، فقلت زيدا أو رأيت رجلا يحدث حديثا فقطعه فقلت: حديثك، أو قدم رجل من سفر فقلت: حديثك، استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخبر، فعلى هذا يجوز وما أشبهه»[3].

5- «إذا ذكرت شيئا من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعد الاسم إذا كنت تخبر عن عمل، أو صفة غير عمل، ولا تريد أن تعرفه بأنه زيدٌ أو عمرو وكذلك إذا لم تُوعِد ولم تفخر أو تصغر نفسك؛ لأنك في هذه الأحوال تعرِّف ما تُرى أنه قد جهل، أو تُنزل المخاطَب منزلة من يجهل فخرا أو تهديدا أو وعيدا، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه، (...) وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً كان محالا؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك عرفت من يعني، إلا أن رجلا لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه قلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك، كان حسنا»[4].

يربط سيبويه في النص الأول الحواس الإنسانية بعملية التواصل وبناء سياق الكلام إذ تغني الحواس عن ذكر المحذوف في العبارة وتحل محله، فرؤية رجل يسلك طريق الحج أو يتأهب للحج "متوجها وجهة الحاج"، أو مرتدٍ ثياب الإحرام قاصدا في هيئة الحاج، فيقول

[1]- سيبويه، الكتاب، ج2، ص130.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص292.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص253.

[4]- المصدر نفسه، ج2، ص80-81.

المتكلم "مكة ورب الكعبة" بحذف الفعل "يريد"، أو يكون سمع من أحد أن هذا الرجل كان بتلك الهيئة فيقول "مكة والله" أي أراد مكة والله، ويوضح سيبويه أن السياق الاجتماعي من رؤية رجل في هيئة الحاج تسمح بحذف الفعل اختيارا لا إلزاما؛ لأن الفعل في مقام كهذا "مستعمل إظهاره" كما سبق وأشار إليه في أول النص.

ثم يتابع سيبويه عرضه "لسياقات حال" مماثلة تجيز حذف الفعل من الكلام، كرؤية الرجل الذي يسدد السهم نحو القرطاس فيخمن المشاهد له أن الرجل سيصيب الهدف فيقول "القرطاسَ" بتقدير فعل محذوف "يصيب" بصيغة المضارع، أو "أصاب" بصيغة الماضي إذا سمع وقع السهم في القرطاس.

الأمر نفسه بالنسبة للنص الثاني، غير أنه في هذا النص – الذي يعد الأوحد في الكتاب– قد أشرك جميع الحواس الإنسانية في عملية التواصل، وهي إلى ذلك – الحواس– تغني عن ذكر المبتدأ في الجملة، فرؤية الرجل لصورة شخص معروف بالنسبة إليه يصدر عنه تلفظ باسمه فيقول "عبد الله وربي" أي هذا يشبه عبد الله أو هذا عبد الله، وكذلك إذا سمع صوت يكون آية (علامة) على صوت آخر يعرفه، يقول "زيد" أي هذا زيد، أو لمس جسدا، أو شم عطرا يعرفه يقول "زيد أو المسك"، أو تذوق طعاما فعرف أنه العسل فقال "العسل" أي أنه العسل، ففي كل هذه الحالات والمواقف تقوم الحواس بدور كبير في إنشاء بنية الكلام.

وفي النص الثالث يفسر سيبويه معنى مثل تداولته العرب وهو "من أنت زيداً" الذي لن يفهم ما لم يعرف السياق الذي أطلق فيه، فيبين سيبويه أولا أصل المثل هو "من أنت تذكر زيداً"، ولكن الفعل "تذكر" حذف لكثرة الاستعمال، غير أن سيبويه ينبه إلى أن جملة "من أنت زيداً" هي إجابة مخاطَب سئل: من أنت؟ فأجاب: زيد، فقيل له حينها: من أنت زيدا؟، ومعنى هذا المثل أن رجلا غير معروف بفضل تسمى بزيد، وكان زيد مشهورا بالفضل والشجاعة، فلما تسمى المجهول باسم ذي الفضل قيل له: من أنت زيدا؟ على سبيل الإنكار، كأنه قال من أنت تذكر زيدا، فحذف الناصب (الفعل تذكر) لأنه كثر في كلامهم فصار مثلا.

ويؤكد سيبويه في النص الرابع على نيابة الحدث أو الواقع الخارجي عن التلفظ بالقول فهذا يعد تصويرا حيا للموقف الذي جرى فيه الكلام والحذف؛ إذ يوجد رجل يضرب أو يقتل

أو يشتم أحدا، فاستثار هذا الأمر أحد المشاهدين – وهو المتكلم– فأحب أن يوقع الضارب أو القاتل عمله ذلك برجل بعينه هو زيد، ولما كان الضارب أو القاتل أو الشاتم منهمكا في عملية الضرب والقتل والشتم، استغنى المتكلم (المشاهد) عن ذكر الفعل له، فاستقام وجاز أن يلفظ كلمة واحدة هي "زيداً"، أو كما قال سيبويه: "فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله"، ثم يورد سيبويه موقفا آخر بَيَّن فيه إفصاح متكلم عن نيته في إيقاع الضرب بشر الناس، فينبري أحد سامعيه ويطلب إليه ضرب زيد بقوله "زيداً". ومثل هذا الحذف يجوز أيضا إذا كان أحد ما يتحدث ثم توقف فجأة عن الكلام، فيطلب منه أحد المستمعين إكمال حديثه ومتابعته بقوله "حديثَك"، كما أن قولنا "حديثَك" لرجل جاء من السفر يعني أن قدومه هذا حل محل قوله "أنا قادم من السفر"، وفي الوقت ذاته لن يستغرب هذا المسافر العائد قول محدَّثَه أو كلامه لأنه يعلم أنه سيسأل ويُستخبَر عن سفره ورحلته فكان الحدث قد ناب مناب الكلام.

والملاحظ في هذه الأمثلة التي أوردناها أن سيبويه أجاز اكتفاء المتكلم بنطق كلمة واحدة في سياقات مختلفة وعدها كلاما، نظرا لكونها مفهومة من قبل سامعها؛ لأن الموقف الذي قيلت فيه كفيل بإيضاح المقصود، وهذا دليل آخر على اهتمام سيبويه بدراسة اللغة الحية المنطوقة داخل سياقها الاجتماعي.

يتحدث سيبويه في النص الخامس عن مجيء الضمير موقع "الابتداء" في الجملة الاسمية، ويؤكد أنه من المحال أن يأتي بعده اسم (خبر) يكون عين المبتدأ ويعرف المخاطَب ذلك من خلال معرفة سابقة عن زمن الكلام، فإذا كان لدينا متكلم اسمه "عبد الله" يتحدث إلى مخاطَب، وكلاهما يعرف صاحبه تمام المعرفة، فإنه لا يجوز للمتكلم أن ينشئ جملة للمخاطَب ويقول "أنا عبد الله" وذلك لأن هذه الجملة لا يحمل خبرها فائدة للمخاطَب لأنه يعلم سلفا أن المتكلم هو عبد الله.

نقول إن هذه الجملة هي من المحال ولا تصح، إلا إذا توافر سياق له خصوصية معينة، وذلك –أوضح سيبويه– أن يكون الموقف الذي يتحدث فيه المتكلم موقف "توعد" أو "فخر" أو "تصغير"، ويريد المتكلم أن يعرف المخاطَب ما يراه، أو أن يكون المخاطَب خلف حائط أو في موقع يجهله المتكلم، أي إن المتكلم لا يرى المخاطب فقال من أنت؟ فقال

المخاطَب: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك، فلو لا السياق هنا ما صح قبول هذا التركيب الذي تمثله جملة "أنا عبد الله".

ويرتبط السياق بالتوجيه الإعرابي أيّما ارتباط وجودا وعدما؛ بمعنى إن وجد السياق وجد الإعراب، وإن انتفى السياق انتفي الإعراب المرتبط به، يقول سيبويه: «وتقول: حسبته شتمني فأثبَ عليه، إذا لم يكن الوثوب واقعا، ومعناه: أن لو شتمني لوثبت عليه، وإن كان الوثوب قد وقع فليس إلا الرفع؛ لأن هذا بمنزلة قوله: ألست قد فعلت فأفعل»[1].

ما يفهم من هذا النص:

- حسبته شتمني فأثبَ عليه (بنصب الفعل أثب) ⟵ في حالة عدم وقوع الشتم بعد.
- حسبته شتمني فأثبُ عليه (برفع الفعل أثب) ⟵ في حالة وقوع الشتم فعلا.

أي إن حالة النصب أظهرت السببية الموجودة في سياق الحال، فالشتم كان سيكون سببا في أن يثب السامع على الشاتم، أما الرفع فتشير إلى الاستئناف، بمعنى أن الكلام قد تمَّ ويراد به معنى جديد. ولا شك أن الأداء النطقي يختلف باختلاف السياق الذي تقال فيه.

ولعل الملفت في هذه النصوص وكذا الأخرى التي –سلف ذكرها– شابها نوع من الحذف لكلمة ما في موضع ما، فأتى السياق ليجبر هذا الحذف فيتم به المعنى، فالسياق موجود في وعي كلٍّ من المخاطِب والمخاطَب فهما يعرفان كل ما يجري، لذلك كان الاختصار ممكنا. فما يجري يعيه كلاهما فلا يحتاج الأول إلى التفسير والإظهار، ولا يعجز الثاني عن الفهم بسبب هذا الاختصار؛ لأن هناك سياق يشعر المخاطَب بقصد المتكلم.

[1]– سيبويه، الكتاب، ج3، ص32.

ونخلص بعد هذا العرض التحليلي إلى أن سيبويه كان يدرك تمام الإدراك تأثير كل من المتكلم والمخاطَب في تحديد بنية الكلام؛ فالمتكلم يختار النسق التعبيري الذي يلبي حاجته وقصده وينقل مراده إلى المخاطَب، وذلك استنادا إلى علم المخاطَب وفهمه، وتعويلا على ما يقدمه السياق من تعويض وتوضيح، وبذلك يتخطى تحليل سيبويه للتركيب التحليل النمطي –السطحي– بما يؤكد تجاوزه العلاقات الشكلية من التأثير والتأثر بين عناصر التركيب وتجاوز المعاني الصرفية والنحوية ويؤكد وعيه بأثر المتغيرات الخارجية في ترتيب عناصر الجملة، "وكأنه يرسم بذلك لأبناء اللغة أن يُسَاوِقُوا بين هذه المتغيرات والوجوه الجائزة المناسبة عند الاستعمال»[1].

[1]– محمد سالم صالح، الدلالة والتقعيد النحوي، ص391.

الفصل الثاني

(السياق بين سيبويه وبعض اتجاهات الدرس اللغوي الغربي الحديث)

أولا: سيبويه ودي سوسير.

ثانيا: سيبويه وبلومفيلد.

ثالثا: سيبويه وتشومسكي.

رابعا: سيبويه ومالينوفسكي.

خامسا: سيبويه وفيرث.

سادسا: سيبويه وفتغنشتاين.

* تمهيد:

لقد استحوذ السياق على اهتمام اللغويين في دراساتهم المختلفة باختلاف تخصصاتهم القديم منهم والحديث، العرب والغرب، بالرغم من تفاوت اهتمامهم واختلاف المصطلحات وكثرة الطرق لدراسته وأساليب بحثه، وبرغم التباين الكبير في الظروف التي تكتنف كلا المنهجين العربي والغربي والسياقات التاريخية والثقافية الخاصة التي يتميز بها كل واحد منهما، فإن ثمة قدرا كبيرا من التشابه بينهما في الاتجاهات والآراء والنظريات المتصلة بالسياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي، والتقت الأفكار وتقاربت المبادئ التي قد يتوصل إليها فكران مختلفان ينتميان إلى حقب زمنية متباعدة، والتي يُخَيَّل إلى المتبصر فيها أنه صدرت من معين واحد.

ولن نقف في المقارنة بين سيبويه والمناهج اللغوية الغربية الحديثة على النظريات اللغوية البحتة، بل ستتعداها إلى نظريات تنتمي إلى ميادين علمية أخرى أثرت البحوث اللغوية، كعلم اللغة الاجتماعي والأنثروبولوجيا اللغوية والفلسفة وعلم النفس، ومن المعجب أن نجد في كتاب سيبويه ما يكاد يستوعب الكثير من الآراء التي طرحها أبرز أعلام اللغة الغربيين من أمثال دي سوسير وبلومفيلد ومالينوفسكي، بل الفلاسفة الذين عنوا بالبحث اللغوي كفتغنشتاين، في الوقت الذي يعترف فيه الكثير من هؤلاء الباحثين الغربيين بأن دراساتهم اللغوية لم تنفتح على سائر العلوم الاجتماعية ولم تتكامل مع الدراسات الإنسانية المختلفة إلى بدءا من منتصف القرن العشرين، على أننا لا نبتغي من وراء هذه المقارنة نسب فضل السبق والتقدم لسيبويه، وإنما جل همما الإشارة ما تقاطع من أفكار في تاريخ الدراسة اللغوية، كونها تعالج اللغة ظاهرة إنسانية عامة، غير أن المقام لا يتسع لمناقشة كل نقاط التشابه المشار إليها آنفا، وإنما سنتعرض لبعضها بصورة مقتضبة، ونبسط الحديث عن بعضها الآخر كما سيتبين لاحقا.

1)سيبويه ودي سوسير:

لا ريب في أن كتاب العالم اللغوي فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857م-1913م) "محاضرات في علم اللغة العام" الذي ظهر عام 1916م كان فاتحة عهد جديد بالنسبة للدراسات اللسانية بوجه خاص والعلوم الإنسانية بوجه عام، والذي أكسب مؤلفه شهرة واسعة في ميدان علم اللغة، بحيث عُدَّ رائدا للدراسات اللغوية الحديثة التي تعتمد التمييز في مناهج البحث ما بين وصفية وتاريخية، وآذنت بظهور ما يعرف "بعلم اللغة الحديث" الذي يتخذ الوصف منهجا، والبنية اللغوية هدفا وغاية[1]، فقد ذهب إلى أنه ينبغي دراسة مفردات لغة شعب ما داخل نظامها اللغوي الخاص، إذ لا يجوز لتلك التعبيرات إلاّ في علاقتها وفي تقابلاتها مع الكلمات الأخرى التي ارتبطت بها[2].

ولعل أهم تغيير أحدثه دي سوسير في تاريخ علم اللغة الحديث عند الغرب ضرورة الابتعاد عن المنهج الزماني (Diachronic) في دراسة اللغة، وتبني المنهج التزامني (Synchronic)؛ إذ إن الأخير يبحث في الطريقة التي يتكلم بها في مجتمع لغوي محدد وفي وقت معين، أي قرر أنه ينبغي دراسة اللغة في مرحلة خاصة أو في "حالة اللغة"(Etat de langue) بمعنى آخر تدرس حالة استقرارها في بيئة زمانية ومكانية محددة، فاتخذ لذلك مصطلح (Synchronic) للدلالة على هذا المنهج، وهو الذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين، ودراسة اللغة في حال استقرارها هي ما يعرف الآن بالمنهج الوصفي[3]، وبذلك جعل دي سوسير اللغة المنطوقة هي في المقام الأول، فدرسها دراسة موضوعية كما هي وكما تظهر، ومن أجل الكشف عن حقيقتها[4]، أي درس اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها.

---

[1]- ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص138.

[2]- ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005م، ص126.

[3]- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1979م، ص29.

[4]- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت، ص52.

وهكذا يكون ما نادى به دي سوسير في الغرب قد سبقه إليه سيبويه وأسلافه من النحاة منذ ما يزيد عن اثني عشر قرنا، حين قامت أسس نظريته اللغوية على اللغة المنطوقة التي كانت يسمعها بصورة مباشرة من ناطقيها، مع ما وضع لهذه المادة المسموعة من شروط زمانية ومكانية لصحة الأخذ والقبول، وكذلك نرى أن سيبويه قد ألمع إلى أهمية دراسة بعض التراكيب من خلال ربطها بتراكيب أخرى مستعملة لدى العرب وقياسها عليها، وشدد على أن تكون هذه التراكيب مستعملة في بيئتهم، وإلاّ فإنها سترفض وإن كانت منسجمة مع القواعد النحوية، فالمنطق العام أو السليقة الفطرية الطبيعية للناطقين الأصليين للغة هي معيار الصحة وعدمها، هذا فضلا عن التفات سيبويه الدائم إلى ضرورة إشراك العوامل الخارجية غير اللغوية في تحليل اللغة وتقعيدها لا سيما في ملاحظة السياق الاجتماعي الذي يدور فيه الكلام، وهو ما عرضنا له في الفصل الأول، وبذلك تعد " دراسته دراسة ميدانية؛ إذ التزمت بمنهج وصفي يتابع مجريات الواقع اللغوي المستعمل، رابطا السلوك اللغوي بالمحيط الخارجي وجميع ملابساته الاجتماعية والنفسية والفكرية والثقافية فانخرط في البيئة العربية التي دارت فيها المحاورات الكلامية بين الأطراف المتخاطبة لالتماس الحقائق اللسانية بجميع فروعها ودقائقها وأسرارها البلاغية والدلالية، فأصبح تعامله مع الكيان اللغوي تعاملا حيا وفعالا (...) لنظرته إلى اللغة على أنها كائن حي وحساس مما يستوجب ضرورة إجراء المعالجات والتحليلات على ذاتها ولذاتها»[1].

2)سيبويه وبلومفيلد:

يعد ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield (1887م-1949م) من أهم الأعلام اللغويين وأكثرهم تأثيرا في تاريخ علم اللغة الأمريكي، وأكثر من اهتم بجعل دراسة اللغة علمية ومستقلة، وذهب إلى أن اللسانيات شعبة من شعب علم النفس السلوكي[2]، فقد كان متأثرا في منحاه هذا بواطسون (Watson) مؤسس المذهب السلوكي في علم النفس. وقد

[1]- دخلوش جار الله درّه بي، البحث الدلالي في كتاب سيبويه، دار دجلة، الأردن، ط1، 2007م، ص436-467.

[2]- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص193.

قاده هذا التعلق إلى بحث المعنى في محيط السلوك البشري من حيث كونه يتألف من عادات مختلفة، إذ تتكون اللغة من مثير أو الفعل الذي يصدر من المتكلم، واستجابة أو رد الفعل الذي يصدر عن السامع، ويتضح ذلك من خلال تعريفه للمعنى بأنه « الموقف الذي يتم فيه الحدث اللغوي المعين، والاستجابة به، أو الفعل الذي يستدعيه هذا الحدث في نفس السامع»[1].

فبلومفيلد لفت الانتباه إلى أهمية الموقف والاستجابة التي تستدعى لدى السامع في تحديد معنى الصيغة اللغوية، وتناول المتكلم والسامع بالتحليل، فجعل الكلام بديلا من استجابة عضوية لمثير معين؛ أي إن التحليل الذي جاء به للحدث اللساني يستند على كون الكلمات في بدائل المثير والاستجابة، وحاول على هذا الأساس تفسير الحدث الكلامي من منظور سلوكي بحث، والذي يقوم على « اكتشاف ما سوف يفعله الفرد في موقف معين أو حين يرى شخصا ما يفعل شيئا، وهذه الطريقة تمكننا من التنبؤ بالاستجابة حين نعرف المنبه أو المثير»[2]، ولذلك ينظر إلى الحدث الكلامي على أنه صورة من صور السلوك الجسماني فإذا ما أردنا فهمه توجب علينا تحليل الأحداث العملية التي تسبقه وتلك التي تليه، فضلا عن دراسته هو في حد ذاته[3]، ويشرح منهجه في بحث الحدث الكلامي من الوجهة السلوكية، فيرى أن الخطوة الأولى في دراسة اللغة هي اعتبارها صورة من صور السلوك الجسماني فكما يمكن فهم هذا السلوك من خلال الظروف البسيطة التي تكتنفه، كذلك يكون فهم الحدث الكلامي، ويشرح ذلك من خلال المثال الذي أورده المعروف بـ "جاك وجيل والتفاحة"، مؤداه أن "جاك" و"جيل" يسيران، وجيل تشعر بالجوع وترى تفاحة على شجرة، فتحدث ضجة بحنجرتها ولسانها وشفتيها، فيتسلق جاك الشجرة ويقطف التفاحة، ثم يحضرها لجيل، ويضعها في يدها، فتأكل جيل التفاحة[4].

---

[1]– أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص61.

[2]– عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص37.

[3]– ينظر: المرجع نفسه، ص38–39.

[4]– أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص62.

ويقصد بلومفيلد بالضجة الكلام الذي نطقت به جيل أمام جاك ليحضر لها ما أرادته، وكان مثيرا كافيا ليستجيب لطلبها الكلامي، وهذا إذا حللنا هذه الواقعة وجدناها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1- الأحداث العملية السابقة على الحدث الكلامي (المثير وهو شعور جيل بالجوع ورؤيتها التفاحة).

2- الكلام (رد فعل لغوي، وهو طلب إحضار التفاحة من جاك).

3- الأحداث العملية التي تلي الحدث الكلامي (الاستجابة وهي إحضار التفاحة)[1].

وبغض النظر عن مدى صواب هذه النظرية السلوكية في تحليل الكلام، فإننا نجد في "الكتاب" العديد من النصوص التي يصور فيها سيبويه مشاهد الأحداث الكلامية التي نتجت عن مثيرات لغوية وغير لغوية، والتي يمكن تبيينها في الجدول الآتي[2]:

الأحداث العملية السابقة على الكلام (المثير اللغوي/ المثير غير اللغوي)	الكلام (رد الفعل اللغوي)
رؤية الحاج	مكة ورب الكعبة
رؤية رجل يسدد سهما نحو القرطاس ثم سماع صوت تسديد السهم	القرطاس والله
رؤية أناس يرقبون الهلال ثم سماع تكبيراتهم	الهلال ورب الكعبة
رؤية رجل يضرب أو يقتل أو يشتم	زيداً

غير أننا نلاحظ غياب عنصر الاستجابة أو الأحداث العملية التي تلي الحدث الكلامي عند سيبويه. لكن من جهة أخرى يمكن مقاربة هذه الأمثلة بما يعرف في علم النفس اللغوي بـ"تداعي المعاني"؛ حيث يعرض الباحث أو عالم النفس اللغوي مجموعة من المثيرات

[1]- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص39.

[2]- راجع الفصل الأول، ص28.

أمام أحد الأشخاص ليدرس استجابته الكلامية الفورية[1]، وبذلك يحتل الجانب النفسي حيزا مهما في دراسة سيبويه للغة.

3)سيبويه وتشومسكي:

بعد أن أصدر نعوم تشومسكي Naom Chomsky كتابه الأول "البنى النحوية" تغير اتجاه اللغة من الوصفية إلى اتجاه جديد عرف بالنحو التوليدي التحويلي[2]، ولم يحفل في بدايته الأولى وأصوله بالسياق واستبعد علاقة اللغة بالمجتمع في أعماله حيث صرح تشومسكي بأن العوامل غير النحوية مما يلابس النحو، ويتداخل وإياه، كمثل عقيدة المتحدث إزاء العالم الذي يعيش فيه، والفروض القبلية، وآثار موقف الخطاب وغير ذلك لا تلعب إلا أدوارا فرعية في تشكيل المستويات المتفاوتة لأصولية الجملة، أو كونها مقبولة لدى أبناء اللغة[3].

وقد ظهرت التوليدية التحويلية نقدا لمدرسة بلومفيلد السلوكية التي، كانت في بحثها، تعامل الإنسان كآلة وكان درسها ميكانيكيا، ودعا إلى نظرية عامة للغة تصدر عن اتجاه عقلي، وقد بدأ هذا الاتجاه خافتا أول الأمر في كتاباته الأولى ثم ما لبث أن قوى وصار أساس المنهج كله، وتبنى هذه النظرية العقلية في جوهرها على ما يمكن تسميته "بلا نهائية" اللغة؛ حيث يرى أن كل لغة تتكون من مجموعة من الأصوات ومجموعة محصورة من القواعد ومع ذلك فهي تنتج أو تولد جملا لا نهاية لعددها، وبناء على هذا رأى تشومسكي أن اللغة إبداعية وخلاقة بطبيعتها؛ أي كل متكلم يستطيع أن ينطق جملا لم يسمعها من قبل، وأن يفهم جملا لم يسمعها قط. فنظرية النحو ينبغي أن تعرف كيفية إنتاج اللغة لجمل لا حد لها من عناصر صوتية محدودة، وهذه النظرية تتوجه إلى صاحب اللغة أو إلى ما يسميه

[1]– محمود كاظم محمود، وزينب الحسين حمدان، تداعي الكلمات الدلالية لدى الأطفال، مجلة كلية التربية، جامعة المستنصرية، ع2، 2008م، ص242–243.

[2]– عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص109.

[3]– ينظر: هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ص198.

تشومسكي بالمتكلم السامع المثالي[1]. كما قدم جملة من المبادئ اللغوية العلمية في شكل ثنائيات مثل (القدرة اللغوية/ الأداء)، (البنية العميقة/ البنية السطحية)، إضافة إلى تركيزه على الجملة باعتبارها الوحدة الأساسية في التحليل اللغوي كما قام بإدخال عنصر المعنى في التحليل فقاد ذلك إلى ما يشبه فكرة الرصف، وإن كان بعمق أكبر يشمل الترابط النحوي، تبعا للمفهوم العام لما يقدمه تشومسكي من دمج واضح لكل مستويات الدرس اللغوي في شكل قواعدي يتدرج من البنية العميقة إلى البنية السطحية، لتصبح الصحة الدلالية ضمن قواعد التحويل التي تمكن من إيصال المعنى من البنية العميقة إلى السطح[2]، ويؤكد أن هناك جانبين لا مناص من الاهتمام بهما معا لفهم اللغة الإنسانية، الجانب الأول هو "الأداء" اللغوي الفعلي وهو الذي يمثل ما ينطقه الإنسان، أي يمثل "البنية السطحية" للكلام الإنساني، وأما الجانب الثاني فهو "الكفاءة" التحتية عند هذا المتكلم السامع المثالي والتي تمثل "البنية العميقة" للكلام، وهذان المصطلحان (الأداء والكفاءة) يمثلان حجر الزاوية في النظرية اللغوية عند تشومسكي؛ إذ يقدم الأداء أي دراسة السطح التفسير الصوتي للغة، أما دراسة الكفاءة أي بنية العمق فتقدم التفسير الدلالي لها، لكن دراسة "الأداء والكفاءة" لا بد أن تسعى إلى معرفة ما يسميه تشومسكي "بالنحوية" في اللغة أي القواعد التي على أساسها تكون جملة ما مقبولة لدى صاحب اللغة[3]، وعليه أضحت النظرية التحويلية تخضع صحة الجملة لشقين من معيار المقبولية أحدهما له علاقة بالصحة النحوية والآخر له علاقة بالصحة الدلالية، ويعطي مثالا لذلك عن الصحة النحوية فجملة Read you a book on modern music (أي المسيقى الحديثة كتاب قرأت عنها) يمكننا فهم القصد إلا أنها تفتقد إلى الصحة النحوية، أما عن الصحة الدلالية يقدم مثال: Colorless green ideas sleep furiously (الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدة)، جملة غير مقبول برغم كونها

[1]– ينظر: عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص114.

[2]– ردة الطلحي، دلالة السياق، ص180–181.

[3]– المرجع السابق ، ص115–116.

صحيحة قواعديا؛ إذ لا معنى لها[1]، وعليه فإن الجملة لكي تتسم بقدر من المقبولية، وخالية من الانحراف لا بد من أن تتوافق والسياق اللغوي معجميا ودلاليا. وبالتالي فهدف النحو هو أن يميز كل ما هو "نحوي" مما ليس "نحويا" في اللغة والقبول النحوي لجملة ما لا يتوقف على المعنى المعجمي فقط لعناصر الجملة، بل يرتكن إلى نظام نحوي خالص، « حيث أشار تشومسكي إلى ضرورة موافقة المنطوق النحوي كل مقتضيات النحو في لغة معينة[2]، فنظام الجملة أو هندستها –السياق اللغوي– وموقع الكلمة المعينة من ذلك النظام من حيث التقديم والتأخير، أو الذكر أو الحذف، أو التعريف أو التنكير مظهرا سياقيا فاعلا، إذ لا يمكن عزل الكلمة عن العلاقات النحوية التي تضمها إلى غيرها.

ونجد سيبويه قد فطن إلى أن للألفاظ إطارها التركيبي وكونها الخاص من خلال هذا التركيب، وتعلقها ببعض على نحو يجسد حركتها الداخلية ويدل بالتالي قلى قدرة التركيب على إبراز المعنى المراد دون غيره، وفي الكتاب شواهد وإشارات تظهر بوضوح فهمه إلى دور نظام الجملة أو التأليف في بيان المعنى المراد دون غيره، وأن أي اختلال في هذا النظام يؤدي إلى ضياع المعنى الدقيق من الجملة المعينة من ذلك ما ذكره من أن مدار الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح، ووضع الألفاظ في غير موضعها دليل على قبح النظم وفساده، قال: « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا.

وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيك غدا، وسآتيك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك، حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه.

---

[1]– ردة الطلحي، دلالة السياق، ص181–182.

[2]– محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية النحوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2006م، ص27–28.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا.

وما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس»[1]، فنلاحظ أن سيبويه من خلال الأمثلة التي ساقها هو الآخر يخضع الجملة إلى معياري النحو الدلالة؛ إذ لا بد من تضافر النحو (التركيب الصحيح) والدلالة حتى تتسم الجملة بالقبول.

4)سيبويه ومالينوفسكي:

يعد برونيسلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowsky (1884م-1942م) من أبرز الأنثروبولوجيين الذين أمدوا علم اللغة بأبعاد إنسانية واجتماعية فائقة الأهمية، وترك أثرا كبيرا فيمن بعده من اللغويين واللغويين الأنثروبولوجيين أمثال فيرث وجسبرسن وجارير[2]، وقد واجه مشاكل في ترجمة اللغات القديمة أثناء دراسته لبعض المجتمعات البدائية من الناحية الأنثروبولوجية، وعند اشتغاله بأبحاث خاصة بسكان جزر التروبرياند (Trobriand) جنوبي الباسفيك وجد أنه عاجز كما يقول بالمر « عن الوصول إلى أي ترجمات للنصوص التي سجلها، فقد سجل على سبيل المثال عبارات لصاحب زورق طويل خفيف يقاد بمجداف ما ترجمته: نحن- نجري أمام- خشب أنفسنا- نحن تحول نحن- نرى زملاء- ناهو- يجري بنصب- خشب...»[3]. فوجد نفسه أمام عدد من المشاكل اللغوية التي لا يجد لها تفسيرا في لغة جزر التروبرياند مما جعله يربط بين كثير من العبارات والتعبيرات التي صعب عليه تفسيرها ترادفيا، فحاول ربطها بالمواقف التي قيلت فيها، وبنوع النشاط السكاني الذي يصاحب أو تصاحبه هذه التعبيرات فخرج من عجزه بزعم « أن الكلام

[1]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص25-26.

[2]- ردة الطلحي، دلالة السياق، ص187.

[3]- ف.ر بالمر، علم الدلالة، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995م، ص84.

المنطوق يكون له معنى فقط لو رأيناه في السياق الذي استخدم فيه، حيث ستكون واضحا – على سبيل المثال– أن كلمة خشب تشير إلى مجداف الزورق»[1].

ويذهب مالينوفسكي إلى مدى أبعد في تقرير أثر السياق الخارجي في أداء اللغة لوظيفتها حيث يقول: « إن اللغة في جوهرها متأصلة في حقيقة الثقافة ونظم الحياة والعبارات عند كل جماعة، ولا يمكن إيضاح اللغة إلاّ بالرجوع الدائم إلى المحيط الأوسع، وهو الظروف التي يتم فيها النطق»[2]، فأكثر ما يشدد عليه مالينوفسكي هو أن فهم اللغة يحتاج إلى مساهمات من فروع علمية عديدة لا سيما من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا اللذين يمدّاننا بفهم أعمق لطبيعة الإنسان وثقافته، فلا سبيل إلى الفهم الصحيح للبناء اللغوي ما لم يفهم هذا الإنسان الناطق باللغة فضلا عن الإحاطة بالظروف التي تكتنف كلامه؛ أي إن معنى أية لفظة يعتمد اعتمادا كبيرا على السياق الذي وردت فيه، لذا فإن دراسة لغة ما يتكلم بها قوم يحيون ظروفا مغايرة لظروفنا ويملكون ثقافة مختلفة عن ثقافتنا، تحتم علينا الإلمام بثقافتهم الخاصة وبظروف معيشتهم وخصائص بيئتهم، وإلا سيتعذر علينا فهم كلامهم على الوجه الصحيح.

وكأننا بسيبويه قد وعى تماما هذه المسألة وطبقها تطبيقا واضحا حين كان يبين السياق الواقعي الذي جرى فيه الكلام الذي يحلله أو يقعد لمبناه، علاوة على الإشارة أحيانا إلى طرف من قيم العرب وأعرافهم الاجتماعية كما رأينا في الفصل الأول، وكما يمكن أن نلاحظ من خلال هذين النصين:

1– يقول سيبويه في معرض تسويغ الرفع للنعت في قولنا: له علمٌ علمُ الفقهاء، « وإنما كان الرفع في هذا الوجه، لأن هذه خصال تذكرها في الرجل (...) ولم ترد أن تخبر بأنّك مررت برجل في حال تعلّم وتفهم، ولكنك أردت تذكر الرجل بفضل فيه (...) كقولك: له حسبٌ حسبُ الصالحين، لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات

[1]– بالمر، علم الدلالة، ص84.

[2]– ردة الطلحي، دلالة السياق، ص155.

(...) وإذا قال: له علمٌ علمُ الفقهاء، فهو يخبر عمّا استقر فيه قبل رؤيته وقبل سمعه منه، ولم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال لقيه إياه، لأن هذا ليس مما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضع أن يخبر بما استقر فيه...»[1].

2- قال مفسرا منع الأسَد أن يكون له اسم علم خاص: « وإنما منع الأسَد وما أشبهه أن يكون له اسم معناه معنى زيد، أن الأُسْدَ وما أشبهها ليست أشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضا من بعض...»[2].

لقد آلف سيبويه في النص بين المنهج النحوي في تعليل الحركات الإعرابية (تعليل رفع الاسم "علم" لكونه نعتا) وبين المنهج الأنثروبولوجي في وصف ما تواضع عليه الناس من تحديدهم لمفهوم الثناء ومعانيه، فالعلامة الإعرابية لا يتم لها معناها النحوي إلاّ إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة[3]، ومن ثمّ رفضه لنصب "علم" في قولنا: "له علمٌ علمُ الفقهاء" على أنها "حال"؛ لأن المعنى الدلالي للحال يقتضي أن تكون الصفة عارضة في الموصوف وليست ثابتة، وهذا ما لا يثنى به الرجل عند العرب. أما في النص الثاني فقد ربط انتفاء وجود تعبير لغوي معين (عدم تخصيص الأسد باسم علم) لعدم حاجة الناس إلى ذلك، في الوقت الذي تكثر فيه الأسماء الخاصة بالخيول وما أشبهها، « ألا تراهم قد اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلام وما يثبت معهم»[4].

ويقرر مالينوفسكي رأيه في وظيفة اللغة واستخداماتها حين ذهب إلى أن اللغات الحية يجب ألا تعامل معاملة اللغات الميتة تنزع من سياق حالها، بل ننظر إليها كما استخدمها الأفراد للصيد، أو الحرث، أو البحث عن السمك، إن اللغة -كما تستخدم في الكتب- ليست هي المعيار على الإطلاق، فهي تمثل وظيفة اشتقاقية متكلفة للغة، لأن اللغة لم تكن أصلا مرآة لفكر منعكس، وحسب مالينوفسكي فإنه إذا أتينا بشخص أوروبي إلى مجتمع بدائي

---

[1]- سيبويه، الكتاب، ج1، ص361-362.

[2]- المصدر نفسه، ج2، ص94.

[3]- نهاد الموسى، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، حضارة الإسلام، ع1، 1974م، ص67.

[4]- سيبويه، الكتاب، ج2، ص94.

وزودناه بترجمة حرفية للكلام المتفوه به فلا يستطيع إدراك معناه، إلا إذا كان واردا في السياق الذي جرى فيه، في إطاره الحديث وفي الجو العام الذي يكون جزءا منه»[1]، واستخلص من هذا أنه من الضروري وضع كل ألفاظ الكلام في سياق الموقف لفهم مغزاها الحقيقي. وهو ما نجده عند سيبويه فالجملة عنده ليست بنية جامدة، ولكنها حية ومتداولة بين متكلم ومخاطب، فقد كان معنيا في كتاب باللغة المنطوقة فضلا عن المكتوبة، فاللغة المنطوقة تشكل حيزا كبيرا من الكتاب –كما سبق وأشرنا– ونجده « وهو بصدد أداء مهمته في إيضاح هذه الأنماط التعبيرية المسموعة عن العرب وتحليل الظواهر الإعرابية الموافقة لها تعبيرا عن وظائف كلامية معروفة، يستعيد السياق الذي ولدت فيه والجو الاجتماعي أو النفسي الذي رافقت دلالتها مما سماه "الحال"، أي المقام الذي قيلت فيه»[2].

ويمكن الإشارة إلى نقطة مهمة هي أن مالينوفسكي لفت النظار إلى مفهوم جديد في اللغة وهو ضرورة البحث عن نظرية تجمع بين اللغة والمجتمع –كما يصطلح عليها الأعاجم– نظرية أثنوغرافية، وقد أدرك خلال دراسته لبعض المجتمعات البدائية أن دراسته لت تصح دون معرفة الوظيفة دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع[3]، فقد لاحظ أن اللغة والموقف مرتبطان ارتباطا لا ينفصم، فلا غنى عن المقام أو الموقف لفهم الألفاظ وتحقق التعبيرات، ومن مهمة الأثنوغرافي الكشف عن هذه العلاقة، إذ إن لكل مجتمع بدائي، كما لكل مجتمع متحضر مخزونا من الألفاظ وأنماطا من القواعد التي لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال ارتباطها بمتطلباته العقلية، فسجل في دراساته مختلف قبائل أستراليا وجزر الهند الغربية أن للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزارعين، وإذا كان سيبويه قد قام بهذا الكشف عن العلاقة بين اللغة والمجتمع من خلال الأمثلة التي ساقها يكون بذلك قد جمع إلى مهمة النحوي واللغوي مهمة الأثنوغرافي.

---

[1]– ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص178.

[2]– صاحب أبو جناح، دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، دار الفكر، عمان– الأردن، ط1، 1998م، ص215.

[3]– ينظر: هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ط1، 1988م، ص43–44.

وثمة مسألة أخرى يؤكد عليها مالينوفسكي وهي أن الكلام المنطوق جزء لا يتجزأ من الحدث وأنه شكل من أشكال السلوك الإنساني المرتبط بالسلوك الاجتماعي، وبما أنه كذلك فإن المتكلم دائما ما يتوجب عليه بشكل ثابت الإحالة أو الإشارة إلى مستمع أو مخاطب، حيث ذهب إلى « أن اللغة ليست مجرد أداة لتوصيل الأفكار، بل هي في المكان الأول جزء من نشاط اجتماعي منسق، وفي اللحظة التي تفصل فيها الكلمة عن سياق هذا النشاط الذي يغلفها، أو سياق الموقف الذي تستخدم فيه لتصبح كلمة جوفاء غير ذات مغزى، لأن الألفاظ لا يمكن أن توجد في فراغ»[1].

وهذه المسألة هي جوهر ما قامت عليه أسس التحليل اللغوي لدى سيبويه، فقلد أورد غير مثال على أن الحدث أحيانا يحل محل الكلام بل وينتج عنه فعل كلامي مرتبط في قواعده بذلك الحدث أو السياق غير اللغوي ويظهر ذلك بجلاء حين يقول: « ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول: خيرَ مقدم (...) أما النصب فكأنه بناه على قوله: قد قدمت فقال: قدمت خير مقدم، وإن لم يسمع منه هذا التلفظ، فقدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قدمت»[2]، فقدوم الرجل من السفر قام فعلا مقام الكلام كما صرح سيبويه، وهو الذي جعل المشاهد له يقول "خير مقدم" أي قدمت خير مقدم، إذا فقول المتكلم "خير مقدم" هو استجابة لغوية لواقع أو مثير لغوي، ومع ذلك عد سيبويه هذا الضرب والتواصل من قبيل التخاطب الكلامي الذي حكم له بالصحة والمقبولية، ومن جهة أخرى فإن سيبويه لا يكاد يغفل ذكر السامع أو المخاطَب والذي يعده في أغلب الأحايين شريكا للمتكلم في صوغ العبارات والتراكيب كما بينا في الفصل الأول عن دور المخاطب في عملية بناء الكلام.

[1]– ردة الطلحي، دلالة السياق، ص155.

[2]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص270–272.

5)سيبويه وفيرث:

يعد جون فيرث John Firth (1890م-1960م) أو لمن جعل اللسانيات علما معترفا به في بريطانيا، وكان متأثرا بالأنثروبولوجي "مالينوفسكي" فانصب اهتمامه على دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي فيما عرف بالنظرية السياقية (Contextuel Theory) التي دشنها منذ سنة 1935م، والتي تعتبر الإسهام الحقيقي للغويين الإنجليز في مقابل الإسهامات الأوروبية والأمريكية الأخرى، وتعد خطوة مهمة ومتقدمة في عالم الدرس اللغوي إذ حاول بها فيرث الاستعاضة عن المذاهب الأخرى في التحليل اللغوي[1]، وقد ضاع صيت هذه النظرية وملأت الأرجاء بما نظمته من أفكار لغوية علمية وفي إطار منهجي محدد المعالم وهي أساسا تعرضت للمعنى ومشكلاته وتنبني على أمرين اثنين:

- السياق اللغوي أو تحليل النص وفق مستوياته اللغوية (المستوى الصوتي، والمعجمي، النحوي، والدلالي) والإفادة من القرائن المتتالية.

- السياق الحالي أو المقامي أو الموقف من خلال ربط العناصر المحيطة بالحدث الكلامي، فأضحى المعنى عند فيرث علاقات هذه الوظائف فيما بينها لغويا أي حاصل معاني البنى على المستويات اللغوية المختلفة بالتساوي، مضافا إليها سياق الموقف بعناصره[2].

واقترح فيرث « أن تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية»[3] وهذا ما اصطلح عليه "المكون الاجتماعي"، نظرا لما له من صلة بخلق الدلالات وتوجيهها بالتضافر مع المكونات الكلامية (اللغوية) ذات الصلة بالبنى النحوية، وعليه يمكن القول إن هذا المذهب تأكيد واضح على ضرورة ربط المقالات بمواقفها الاجتماعية من أجل تحديد الدلالة وفحوى

---

[1]- ردة الطلحي، دلالة السياق، ص157.

[2]- محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية هند هاليداي، ملتقى الفكر، الإسكندرية، ص29.

[3]- أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2015م، ص91.

التراكيب اللغوية تحديدا صحيحا، حيث يرى أن « مكونات اللغة لابد أن تدرس وفق مكونات اجتماعية بالتركيز على العلاقات المختلفة التي تربط اللغة بالمجتمع»[1].

وعليه فالمكون الاجتماعي وما يقتضيه من مصطلحات (سياق الموقف، السياق اللغوي)، لم يكن وليد المدارس الحديثة وحدها، فقد طرق سيبويه هذه الحقيقة في دراسة المعنى الاجتماعي؛ حيث « اعتبر موقف الاستعمال فيصلا لصحة التراكيب النحوية وخطئها، فقد يكون التركيب صحيحا في موقف وربما لا يكون كذلك في موقف آخر»[2]، فحين اهتم بالعوامل الاجتماعية في اللغة لم يقتصر النظر في بنية النص اللغوي، كما لو كان شكلا منعزلا عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به، وإنما أخذ المادة اللغوية على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطن إلى أن للكلام وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذلك المعنى لهما ارتباط بسياق الحال وما فيه من شخوص.

كما نجده يجمع في كتابه بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق –كما سبق بيانه في الفصل الأول– فنلاحظ اهتمامه بسياق الموقف عندما « يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المقامات الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المتكلم وحال المخاطَب والعلاقة بينهما»[3]، فسيبويه وهو بصدد أداء مهمته في إيضاح الأنماط التعبيرية المسموعة عن العرب يستعيد السياق الذي ولدت فيه والجو الاجتماعي والنفسي الذي رافق ولادتها مما سماه "الحال" في غير موضع من كتابه؛ أي المكون الاجتماعي الذي

---

[1]– ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص175.

[2]– حليمة أحمد عمايرة، الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، دار وائل، الأردن، ط1، 2006م، ص100.

[3]– حورية رزقي، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، باب الذكر والدعاء أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة والأدب العربي، 2004م–2005م، ص47.

كونها حسب المفهوم الحديث، وهو يدرك أن مهمته في إفهام تلاميذه تقتضي أن يستعيد صورة المشاهدة والعيان؛ لإيضاح فحوى مختلف النصوص[1].

وإذا كان فيرث في نظريته "سياق الحال" حريصا على دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي، من خلال مجموعة من العناصر المحيطة بالحدث الكلامي، فإنه لم يهمل كذلك دور السياق الداخلي في تحليل المعنى، من خلال دراسته لمجموعة المستويات التي تكون اللغة، وقد ارتبط السياق اللغوي عنده بالمستوى التركيبي باعتبار أنه يبحث في العلاقات القائمة بين المورفيمات داخل الجملة وطريقة بنائها وصلتها بعضها ببعض والتغيرات الطارئة على عناصرها بتقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة، فلقد كان المعنى عند فيرث حجر الزاوية في النظرية النحوية[2]؛ إذ وظف مصطلح التركيب وذهب إلى أنه تلك العلاقات التبادلية بين العناصر اللغوية في نص أو جزء منه على مستويات من بينها المستوى النحوي، فإذا كان من السياق اللغوي النظر إلى طريقة ترتيب العناصر اللغوية داخل التركيب وما يترتب على ذلك من دلالات، فلقد أولى سيبويه علاقة السياق بالمكون التركيبي عناية كبيرة واهتماما واسعا؛ فالمكون التركيبي عنده هو كل العناصر التي تنتظم ويسلم بعضها إلى بضع في رصف الجملة لكل عناصرها، ابتداء من الحرف وضبطه، مرورا بالكلمة وهيأتها، وانتهاء بأخذها الموقع المناسب من تركيب الجملة، فعلاقة السياق بالمكون التركيبي هو الأثر الذي يحدثه السياق من حذف أو زيادة أو تعيين أو تقديم أو تأخير وعلاقة ذلك بالمعنى والدلالة، من خلال تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته الداخلية المكونة له، والكشف عما بينها من علاقة داخلية تفضي إلى المعنى[3]، ويتضح ذلك من خلال قوله: « إن التقديم على ضربين ضرب يكون المقدم فيه على نية التأخير وذلك إذا أبقيت المقدم على حكمه الإعرابي الذي

[1]– ينظر: صاحب أبو جناح، دراسة في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ص215.

[2]– محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي، ص29.

[3]– ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص338.

كان عليه قبل التقديم كتقديم المفعول على الفاعل في نحو: ضرب عمراً زيدٌ، وتقديم الخبر على المبتدأ في نحو: منطلقٌ زيدٌ»[1].

فهو يعتمد على دلالة العلامة الإعرابية في بيان التقديم والتأخير وهذه العلامات الإعرابية من عناصر السياق اللغوي الدالة على التقديم والتأخير، كما يربط سيبويه التقديم بإرادة المتكلم لأنك أردت بالفاعل مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بالمفعول وإن كان الفاعل مؤخرا في اللفظ، ذلك لأن العرب تقدم الذي بيانه أهم وأعنى لهم، فاللفظ يحافظ على حكمه الإعرابي رغم تقديمه أو تأخيره، وهكذا تكون « العلامة الإعرابية من عناصر السياق اللغوي الدالة على الفاعل والمفعول في مثل الجمل التي خالفت الرتبة الأصلية»[2].

وتعد ظاهرة المصاحبة أو التلازم إحدى ظواهر التركيب وصورة من صور العلاقات الأفقية على المستوى المعجمي وشكلا من أشكاله، حيث نبه فيرث إلى فائدة الدراسة المعجمية عموما وجوانبها الشكلية خصوصا، لأن مجيء كلمة في صحبة كلمات أخرى يجسد أحد معانيها، واتخذ للمصاحبة مستوى من مستويات التحليل هو التحليل المصاحبي «...أي مع ذلك الجزء من معنى المفردات التي لا تعتمد لا على وظائفها في مقام خاص بل على نزوعها إلى أن تترافق في السياقات»[3].

ويذهب سيبويه في هذا الصدد عندما سأل الخليل عن الحذف جوابات الشرط في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[4] وعن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ﴾[5] فقال الخليل: « إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر [الجواب]

[1]– سيبويه، الكتاب، ج2، ص122.

[2]– محمد سالم صالح، الدلالة والتقعيد النحوي، دراسة في فكر سيبويه، ص389.

[3]– محمد حسن عبد العزيز، المصاحبة في التعبير اللغوي، دار الفكر الغربي، د.ط، 1999م، ص13.

[4]– الزمر، الآية: 73.

[5]– البقرة، الآية: 165.

في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام»[1]، فحذف الجواب في مثل هذا الموضع أفخم لأن المخاطب يتوهم كل شيء فإذا ذكر شيء بعينه حضره فهمه.

كما اهتم فيرث بالأداء الصوتي من خلال دراسة الجوانب الصوتية للألفاظ في السلسة الكلامية؛ بحيث ذهب إلى أن تلك المصاحبات الصوتية للكلام تساهم في تحديد المعنى لاسيما النبر والتنغيم والوقف، فالنبر (Stress) « هو وضوح سمعي أو بروز نسبي لفونيم أو مقطع في الامتداد الخطي للأصوات الملفوظة نتيجة الضغط أو الارتكاز أو الاستخبار أو الاستهزاء»[2]، من خلاله يتم تحديد معنى الجملة كالاستفهام أو الاستخبار أو الاستهزاء وغيرها، أما التنغيم (Intonation) فهو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق أو درجة ارتفاع الصوت أو انخفاضه على مستوى على مستوى الجملة أو العبارة. والوقف (Pause) هو فونيم إضافي أو فوق تركيبي مصاحب للكلام وعنصر من العناصر المميزة للنظام الصوتي للغة ويقوم بدور وظيفي في تحديد دلالة ما ينطق به المتكلم وعد الالتزام به في الجملة يؤدي إلى الخطأ[3] ومثال ذلك قولك (من اجتهد نجح، ومن تكاسل) ووقفت لفسد المعنى وتلاشى القصد، والصواب هو وصل الجملة بقولك (رسب) عندها يصح الوقف.

ونجد سيبويه هو الآخر قد اعتنى بالأداء الكلامي وما يصاحبه من نبر وتنغيم « بوصفها جزء من السياق اللغوي للنص، لأنهما يرتبطان بطريقة الأداء الصوتي للكلام من حيث الضغط على بعض المقاطع والتنغيم أو التلوين الصوتي للكلمة أو الجملة»[4]، فقد اعتمد سيبويه على الوقف في توجيه المعنى على مستوى التركيب، وجعله ضابطا لصحته، فمن ذلك قوله: (زيد أحذرك) لأنه ليس من أمثلة الفعل، فقبح أن يجرى ما ليس من الأمثلة

[1]– سيبويه، الكتاب، ج3، ص103.

[2]– تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص70.

[3]– كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، القاهرة، ط3، 2001م، ص164.

[4]– محمد سالم صالح، الدلالة والتقعيد النحوي، ص400.

مجراها إلاّ أن نقول (زيداً) فتنصب بإضمارك الفعل ثم تذكر (أحذرك) بعد ذلك[1]، ويبرز الوقف أيضا بوصفه عنصرا من العناصر الصوتية في السياق اللغوي، في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2] تقرأ (وما يشعركم) ووقف على ذلك ثم تكمل (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) وهكذا اتضح أن الوقف وهو من عناصر الأداء اللغوي لنص يسهم بشكل واضح في تفسير النصوص وبيان دلالاتها.

وأما التنغيم فيظهر من قول سيبويه: « وإنما المستغاث به (فيا) لازمة له، لأنه يجتهد فكذلك المتعجب منه، وذلك: يا للناس، ويا للناس، ويا للماء، وإنما اجتهد، لأن المستغاث عندهم متراخ أو غافل، والمتعجب كذلك، والندبة يلزمها (يا) و(وا)؛ لأنهم يحتلطون ويدعون ما قد فات وبعد عنهم، ومع ذلك أن الندبة كأنهم يترنمون فيها فمن ثم ألزموها المد وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترنم»[3]، وما لا يخفى على أحد أن « كلا من الاجتهاد والاحتلاط والترنم ضرب من ضروب التنغيم أو التلوين عند الأداء الفعلي للكلمة أو التركيب»[4].

6)سيبويه وفتغنشتاين:

ما من شك في أن الاتجاه الفلسفي في دراسة اللغة يختلف في أبعاده وغاياته عن الاتجاه اللغوي الصرف في بحث المسائل اللغوية، إذ إن الفلاسفة لا يلقون بالا لقواعد النحو وأساليب التعبير فيما يعينهم على حل قضاياهم الفلسفية، غير أن ذلك لا يمنع الاستفادة مما يقدمونه من تحليلات ونظرات عميقة قد تمس جوهر اللغة وتكشف عما لا يتأتى للغوي الكشف عنه أو الظفر به، وقد جسّد الفيلسوف النمساوي لودفيج فتغنشتاين Loduedge Vittgenstien فكرة السياق في ممارسته الفلسفية الفعلية، لاسيما في آرائه وأعماله المتأخرة ككتاب "تحقيقات فلسفية" الذي تدارك فيه جوانب القصور في تصوره للغة على أنها رسم

[1]– كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، ص104.

[2]– الأنعام، الآية: 112.

[3]– سيبويه، الكتاب، ج2، ص231.

[4]– محمد سالم صالح، الدلالة والتقعيد، ص402.

للوجود الخارجي أو تصوير له، وأن معنى الكلمة هو الشيء الذي تشير إليه؛ حيث أعاد النظر في مفهوم الرسالة للعلاقة بين المنطق واللغة، وفي شروط المعنى فيها، فقد أدخل تعديلات جوهرية على ذلك المفهوم بحيث جعل اللغة تتحرر إلى حدّ كبير من قبضة المنطق، الذي لم يعد يشكل المصدر الوحيد للمعنى الذي يتوجب على اللغة أن تعتمد عليه، ولكن هناك مصدر آخر للمعنى أكثر غنى هو ما نمارسه نحن فعلا في حياتنا الاجتماعية[1]. واتخذ حيلة جديدة في نظرية المعنى سماها "ألعاب اللغة" فكثيرا ما كان فتغنشتاين يذهب «...إلى أن السؤال عند تحليل قول ما هو في الواقع مجرد سؤال عن الطريقة التي نستخدم فيها القول في سياق ما، أكثر من أن يكون السؤال عما يعنيه هذا القول في الواقع...»[2]؛ إذ لم تعد معرفة معاني الكلمات كافية لتحديد معنى جملة ما تتحدث عن واقعة من الوقائع، بل أصبح لابد من معرفة كيفية استعمال معاني الكلمات في اللغة،فالعبارات لا معنى لها إلا من خلال السياق واللفظ يحصل على معناه من خلال المناسبة التي استعمل فيها في اللغة العادية أو الطبيعية، وبالتالي فإن فعل الكلام شكل من أشكال الحياة، واللغة تحيا من خلال الاستعمال، ولا أدل على تصوره هذا من مقولته الشهيرة « معنى القضية هو الغرض منها»[3] أي الاستعمال الاجتماعي للغة لتحقيق أغراض معينة من قبل أفراد معينين في مجتمع معين. ولتأكيد فكرة "بأنه ليس للكلمة دلالة، وإنما استعمالات فحسب" ملغيا بذلك أي معنى للكلمة خارج الاستعمال أو التركيب يقول: « أفلا يكون غريبا أن يقول إن كلمة (is) تستعمل لمعنيين مختلفين (لمرابطة وعلامة للتساوي) ولا أهتم بأن أقول أن معناها هو استعمالها، أعني استعمالها لمرابطة، وعلامة للتساوي»[4].

---

[1]– جمال حمود، فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، د.ط، د.ت، ص312.

[2]– صلاح إسماعيل عبد الحق، فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص250.

[3]– المرجع السابق، ص307.

[4]– صلاح إسماعيل، فلسفة اللغة والمنطق، ص226.

ولا يختلف فتغنشتاين في رأيه هذا عما جاء به سيبويه حينما تحدث عنه تحت باب اللفظ للمعاني، هذه التقسيمات العقلية المطابقة للواقع اللغوي المستعمل بالفعل أو القوة، وهو ما يخص اتفاق اللفظين واختلاف المعنى مثل قولك: وجدت عليه من الموجدة أي الحزن، ووجدت إذا أردت وجدان الضّالة أي العثور على الشيء[1]؛ حيث تناغم التقسيم في المعنى مع اختيار المبنى المناسب وإضافة فوارق دقيقة بين المعنيين مختلفي السياق، فنجده يعزي معنى الكلمة إلى استعمالها، فالكلمة الواحدة تتعدد معانيها تبعا لتعدد السياقات التي ترد أو تستعمل فيها.

وثمة مبحث آخر عني به فتغنشتاين أشد العناية وهو أن « معنى كلمة ما يكمن في كيفية استعمالها وأن السياق وحده الكفيل بإزالة اللبس والفهم للعبارة المنطوقة وإن لم تكن مكتملة العناصر نحويا، فالنطق بكلمة واحدة "بلاطة"[2] على سبيل المثال يمكن أن تفهم فهما تاما إذا أحطنا بالسياق الذي وردت فيه وإذا عرفنا لمن قيلت ولماذا. فإذا تصورنا أن هذه الكلمة قيلت في ورشة بناء، وأن الذي قال هذه الكلمة هو أحد العمال مخاطبا زميله "أحضر لي بلاطة" أو "هات لي بلاطة"[3]، وبالتالي فإن المتكلم الذي نطق بهذا العبارة يعلم يقينا بأن من يسمعه سيفهم قصده، لذا لن يحتاج إلى ذكر الجملة كاملة، وهو إن فعل ذلك، فإنه يتلفظ بتفاصيل هو في غنى عنها بل وقد يستهجن سامعه قيامه بذلك.

إذاً، فالسياق هو الذي أجاز هذا الحذف، وهو الذي جعل الكلمة مساوية للجملة الأصلية المذكورة سلفاً لأنها وحسبه أدت المعنى ذاته، أو وضعت في الاستخدام عينه[4].

ويتفق فتغنشتاين في هذه النقطة مع سيبويه في معرض حديثه عن تسويغ حذف الأفعال بل حذف الجمل، وعدِّ ذلك صحيحا لأنه مقبول معنى واستخداما، لاسيما إذا كان السياق الاجتماعي الذي ورد فيه الكلام يسمح بهذا الاختصار والحذف، كون المخاطَب

[1]– ينظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص24.

[2]– لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، تر: عبد الرزاق بنّور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م، ص131.

[3]– المصدر نفسه، ص132.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، ص133.

فاهما تماما لقصد المتكلم من الكلام، حيث ساق سيبويه العديد من الأمثلة التي أجاز فيها النطق بكلمة واحدة مثل "زيداً"[1]، إذا كان هذا المخاطَب على دراية بأن المتكلم يريد منه إيقاع أمر بزيد من ضرب أو ما شابه.

ونستخلص مما عرض آنفا، بأن وجوه التشابه التي أسفرت عنها مقارنة ما جاء في "الكتاب" بما صدر عن بعض المدارس الغربية في اللغة والأنثروبولوجيا والفلسفة وغيرها، تؤكد أن سيبويه لم يعن بدراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، وإنما انصب اهتمامه على طرق استخدامها –وبخاصة المنطوقة– في المجتمع العربي وهو ما أفضى به إلى توسيع دائرة بحثه اللغوي لتشمل الجوانب النفسية والاجتماعية وحتى الفلسفية، ويكون بذلك قد حاز فضل السبق على الدرس اللغوي الغربي الذي لم يتفطن إلى ذلك إلاّ مع مطلع القرن العشرين، وتلك حقيقة لا يمكن غض النظر عنها أقر بها كارتر في محاولة منه لإنصاف سيبويه حيث يقول: « أنه لو قدر لسيبويه أن يولد في عصرنا لتبوأ منزلته بين دي سوير وبلومفيلد»[2].

[1]– راجع الفصل الأول، ص29.

[2]– أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، نقلا عن: Carter, An Arab Grammarian of the eighth centry, p146 .

خاتمـــة

بعد رحلتنا في بحثنا هذا يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية:

– يعد السياق من الموضوعات المهمة التي نالت عناية العلماء قديما وحديثا، حيث أدركوا الوظيفة المهمة له في كشف المعاني الغامضة والمبهمة وجلائها، ففكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقة للكلام مطروحة في الفكر اللساني منذ القديم.

– لم يكن علماء العربية بعيدين عن إدراك وظيفة السياق ودلالته، واستخدموا مصطلحات أخرى للدلالة عليه مثل: الحال، المقام، المشاهدة، الدليل، القرينة، والموقف وكلها تصب في معين واحد.

– ينقسم السياق إلى قسمين، سياق لغوي داخلي متعلق باللغة وتركيبها من موقع الكلمة بين أخواتها والهيئة التي ائتلفت فيها الكلمات مع بعضها ومكان هذه الائتلافات والتراكيب من الموضوع الجامع لها، وسياق خارجي أو سياق الحال، ويتمثل في الظروف المحيطة بالنص أو الكلام سواء منها ما يتصل بالمخاطِب أو المخاطَب من الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية وكذا البيئة الزمانية والمكانية التي أنتج فيها الحدث الكلامي.

– اهتم سيبويه باللغة الحية المنطوقة، فاللغة عنده لا تنفك عن ملابسات استعمالها، فتنبه إلى السياق ووعاه وطبقة في كتابه؛ إذ جعله فيصلا في الحكم بصحة التراكيب النحوية وخطئها فنراه يقف على الجملة الواحدة فيحكم عليها، في موقف من الاستعمال، بأنها خطأ، وبأنها صواب في موقف آخر.

– اهتم سيبويه بمعظم العناصر الأساسية التي تشكل السياق غير اللغوي (الحال) كما يسميه بنفسه من متكلم ومخاطب والعلاقة بينهما، وزمان ومكان، وموضوع الكلام وأثره والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي وغير ذلك من العناصر غير اللغوية المصاحبة للكلام المنطوق واستغلها في توجيهاته الإعرابية.

– وظف سيبويه الكثير من الأمثلة التي زاوج فيها بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق؛ حيث نراه يقف على تراكيب مخصوصة فيردها إلى أنماط لغوية مقررة، وبقدر ما يكون قد عرض لها من الناحية اللغوية الخالصة من حذف أو تقديم أو تأخير وغيرها وفق نظرية العامل، نجده لا يقف عند ذلك فقط، بل يتعداه إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المتكلم وحال المخاطب وموقف الكلام.

– تناول سيبويه السياق بشقيه في تقعيده النحوي، ويبدو ذلك جليا من اعتماده على السياق اللغوي في بيان مبنى التركيب ودلالته وتجويزه بهذا السياق حذف أحد عناصر الجملة وطريقة ترتيب هذه العناصر اللغوية داخل التركيب، واستعانته بطرق الأداء اللغوي المصاحبة للنطق بالعبارة كالوقف والنبر والتنغيم.

وأما اعتماده على سياق الحال فيتضح من استعانته بإرادة المتكلم والمخاطب في تعيين معنى التركيب وضرورة اختيار المفردات والأساليب لكل باب، واستعانته بملابسات الحال في التوجيه النحوي، والحكم على التركيب بالصحة والإحالة، أو الحذف استنادا على عناصر سياق الحال.

– لم يمارس سيبويه في كتابه دور النحوي الذي يُقصر اهتمامه على المسائل اللغوية الصرفة فقط، وإنما كانت الأبعاد الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تكتنف الكلام ركيزة أساسية بنى عليها الكثير من الأحكام، وقد كان في ذلك كله يروم إلى توضيح الطريقة التي كان يتبعها العرب في كلامهم، فقد كان أقرب ما يكون من الموضوعية في دراسته للغة مما يجعل مقارنته بالمناهج الغربية الحديثة أمرا مستساغا ومقبولا من الناحية العلمية.

الملخص

ملخص:

غاية هذه المذكرة دراسة أثر سياق الكلام، وبخاصة في بعده الاجتماعي، في التراكيب النحوية لدى سيبويه، مع إجراء دراسة مقارنة بينه وبين المناهج اللغوية الغربية الحديثة.

فقد فطن سيبويه للطبيعة الاجتماعية للغة، وأنها يجب ألا تدرس بمعزل عن سياقها الاجتماعي، لذا شدد على دور المتكلم وقصده في تحديد العلامات الإعرابية وغيرها من الظواهر اللغوية، كما أكثر على التأكيد على عناصر سياقية أخرى منها: المخاطب، سياق الموقف أو الحال المشاهدة كما يسميها.

وعند مقارنة منهج سيبويه التحليلي بمنهج بعض اللغويين الغربيين المحدثين أمثال دي سوسير، مالينوفسكي، وفيرث وقعنا على عدة قضايا مشتركة بين المنهجين تتصل بأهمية الوقوف على الأبعاد الاجتماعية للكلام، ودورها البارز في تحديد معاني العبارات المنطوقة.

Abstract:

This thesis aims to examine the impact of speech context, particularly in its social dimension, on grammatical structure according to Sībawayhi in his *Al-Kitāb*, with drawing a comparison between the latter's method and that of the Arabic linguistic tradition, in addition to some of the modern linguistic approaches.

Sībawayhi was perfectly conscious of the social nature of language, and realized that it should not be studied in isolation from its social context. Accordingly, he emphasized the role of the speaker and his intention in determining case endings and other syntactical phenomena. Other elements of context which he frequently highlighted include the addressee, and the context of situation.

Upon comparing Sībawayhi's linguistic analysis with that of some western modern linguists, namely de Saussure, Malinowsky, and Firth one comes across a lot of common issues concerning the importance of the social dimensions of speech, since these play a significant role in determining the meaning of the utterances.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

1- البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، د.ت، ج1.

2- ابن خلكان (أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1987م، ج3.

3- الزبيدي مرتضى، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت.

4- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود)، الكشاف، تح: يوسف حمادي، مكتبة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ج2.

5- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود)، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، د.ت.

6- السهيلي(عبد الرحمان بن عبد الله)، نتائج الفكر في النحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1992م.

7- سيبويه (أبو بشر بن عمرو عثمان)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

8- السيرافي (أبو سعيد الحسن)، أخبار النحويين البصريين، تح: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، ط1، 1985م.

9- السيرافي (أبو سعيد الحسن)، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ج1.

10- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة ط2، 1979م، ج2.

11- أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي)، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، د.ت.

12- القفطي (جمال الدين أبي الحسن)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ط1 1986، ج2.

13- ابن يعيش بن علي، شرح المفصل للزمخشري، تح: إميل يعقوب، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.

2. المعاجم:

1- ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت، ج3.

2- معلوف لويس، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت- لبنان، ط21، 1973م.

3- ابن منظور(أبو الفضل بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان، ط1، 1997م، ج3.

3. المراجع:

1- أبو جناح صاحب، دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، دار الفكر، عمان- الأردن، ط1، 1998م.

2- بشر كمال، علم اللغة الاجتماعي، مدخل، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ط، 1994م.

3- البركاوي عبد الفتاح، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، د.ط، د.ت.

4- عبد الجليل عبد القادر، علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، عمان – الأردن، ط1، 2002م.

5- حسام الدين كريم زكي، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، القاهرة، ط3، 2001م.

6- حسان تمام، اجتهادات لغوية، القاهرة- مصر، ط1 ، 2007م.

7- حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، د.ط، 1994م.

8- حمود جمال، فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، د.ط، د.ت.

9- عبد الحق صلاح إسماعيل، فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.

10- خلف العوادي أسعد، سياق الحال في كتاب سيبويه، دراسة في النحو والدلالة، دار الحامد، عمان- الأردن، ط1، 2011م.

11- خليل حلمي، الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1993م.

12- خليل عبد النعيم، النظرية السياقية بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية ونحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، ط1، 2007.

13- عبد الدايم محمد عبد العزيز، النظرية النحوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2006م.

14- دخلوش جار الله درّه بي، البحث الدلالي في كتاب سيبويه، دار دجلة، الأردن، ط1، 2007م.

15- الراجحي عبده، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1979م.

16- حورية رزقي، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، باب الذكر والدعاء أنموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، 2004-2005م.

17- رشدي صائل، عناصر تحقيق الدلالة في العربية، دراسة لسانية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2004م.

18- السعران محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت.

19- شاهين أحمد فهد صالح، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2015م.

20- شحدة فارع، عمايرة موسى وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل، عمان، ط1، 2000م.

21- الشاويش محمد، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، كلية الآداب، منوبة- تونس، ط1، 2001م.

22- صالح محمد سالم، الدلالة والتقعيد النحوي، دراسة في فكر سيبويه، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006م.

23- الطلحي ردة الله بن ردة، دلالة السياق، جامعة أم القرى، ط1، 141838.

24- عبابنة يحيى، الزغبي آمنة، علم اللغة المعاصر، مقدمات وتطبيق، دار الكتاب الثقافي، أربد- الأردن، د.ط، 2005م.

25- عضيمة محمد عبد الخالق، فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ط، 1975م.

26- عمايرة حليمة أحمد، الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، دار وائل، الأردن، ط1، 2006م.

17- عمر أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م.

28- عبد العزيز محمد حسن، المصاحبة في التعبير اللغوي، دار الفكر الغربي، القاهرة، د.ط، 1999م.

29- مؤمن أحمد، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005م.

30- محمد سعد محمد، في علم الدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة – مصر، ط1، 2002م.

31- محمود كاظم محمود، وحمدان زينب عبد الحسين، تداعي الكلمات الدلالية لدى الأطفال، مجلة كلية التربية، جامعة المستنصرية، العدد2، 2008م.

32- منقور عبد الجليل، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م.

33- الموسى نهاد، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، حضارة الإسلام، عدد1، 1974م.

34- نحلة محمود أحمد، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ملتقى الفكر، الإسكندرية، د.ط، د.ت.

35- النجدي علي، سيبويه إمام النحاة، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1979م.
36- نهر هادي، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ط1، 1988م.

- الكتب المترجمة:

1- بالمر ف.ر، علم الدلالة، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995م.
2- بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت.
3- لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، تر: عبد الرزاق بنّور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007م.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الإهداء

شكر وتقدير.

مقدمة .....أ-ج

الفصل الأول :أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية.....02-31

I. ترجمة سيبويه.....02

1) اسمه ونشأته ووفاته.....02

2) شيوخه.....03

3) منزلته العلمية.....03

4) لمحة عن كتاب سيبويه.....04

II. تعريف السياق.....06

* تمهيد.....06

1) لغة.....06

2) اصطلاحا.....07

أ) السياق في التراث العربي.....07

ب)السياق عند المحدثين.....08

3) أقسام السياق.....09

أ) سياق لغوي (داخلي).....09

ب)السياق الخارجي أو سياق الحال.....11

4) سيبويه والوجهة الاجتماعية في دراسة اللغة.....13

III.عناصر سياق الكلام عند سيبويه.....15

1) المتكلم.....15

أ) المتكلم "الشاعر".....15

ب)المتكلم "المتعلم".....16
ت)المتكلم "المخطئ".....16
ث)المتكلم "الثقة".....16
* أمثلة المتكلم.....17
2) المخاطب.....20
3) دلالة الموقف (الحال المشاهدة).....26
الفصل الثاني: .....
السياق بين سيبويه وبعض اتجاهات الدرس اللغوي الغربي الحديث.....33 -53
* تمهيد.....33
1) سيبويه ودي سوسير.....34
2) سيبويه وبلومفيلد.....35
3) سيبويه وتشومسكي.....38
4) سيبويه وماليونوفسكي.....41
5) سيبويه وفيرث.....45
6) سيبويه وفتغنشتاين.....51
الخاتمة.....55
الملخص.....58
قائمة المصادر والمراجع.....60
فهرس الموضوعات.....66